FYODOR DOSTOEVCKY

روايات

دوستويفسكي

رسائل من تحت الأرض

ترجمة: أنيس زكي حسن



رسـائل مـن تحت الأرض



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12

هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962

ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

رسائل من تحت الأرض/ رواية روسيّة

فيودور دوستويفسكي/ روسيا

ترجمة: أنيس زكي حسن/ الأردنّ

مراجعة وتدقيق: يوسف الطريفي/ الأردنّ

◆

الطبعة العربيّة الثانية، 2017

◆

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب، عمّان، الأردن 95297109 7 00962



الصف الضوئي: إيمان زكريا خطّاب، عمان هاتف: 95349156 7 00962

رواية

دوستويفسكي

رسائل من تحت الأرض

ترجمة: أنيس زكي حسن
مراجعة وتدقيق: يوسف الطريفي



مُقَدِّمَة

بدأت الأشكال الأولى للرواية الروسية في منتصف القرن الثامن عشر، ومع أنها ظهرت متأخرة عن مثيلاتها في بعض بلدان الغرب، إلا أنها سرعان ما حققت مكانة رفيعة واضحة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وأعطت صورة شاملة عن أفراد المجتمع الروسي، خاصة عندما تحولت في نماذجها الأولى من الرومانسية إلى الواقعية، بعد أن ارتبط بروزها بعدة عوامل، كان في مقدمتها الظروف التاريخية للتطور الذي حصل في روسيا عندما حصل التوتر الشديد بين الطبقات الواسعة هناك، إضافة إلى حركة النهضة الأخلاقية والعلمية ونمو الوعي الجماهيري وحركة التحرر الشعبي الذي أدى إلى توسيع قاعدة القراء الواعية المؤثرة في الحركة الأدبية.

وقد ساهم الروائيون في هذه الحركة بشكل واضح حين كشفوا عن النضال الاجتماعي، وأبرزوا صوراً مختلفة للشخصيات التي مثلت أجيالاً مختلفة جسدت الملامح الأساسية لكل جيل عبر تاريخ روسيا بشكل جمالي وفني رائع، حيث عكسوا في أعمالهم آلام وأحلام البسطاء الذين اتجهوا إلى تحليل تلك الأعمال الروائية والتي أكد عليها الناقد «أودينوكوف» بأنها تبنى على «الفكرة الشعبية»، وعلى الرغم أن معظم هؤلاء الكُتّاب كانوا من أبناء

النبلاء، إلا أنهم ركزوا على الصراع الاجتماعي، وعلى مشاكل المجتمع الروسي آنذاك وارتبطت أعمالهم بظروف الحياة الواقعية حتى غدت رواياتهم مرآة ناصعة للحياة الاجتماعية والنضال التاريخي بمنعطفاته ومنحنياته، وقد ظهر عدد من الروائيين الكبار، كان من بينهم الروائي العالمي دستويفسكي.

تمتع الكاتب الروسي فيودور ميخائيلوفيتش دستويفسكي (1821-1881) بشهرة عالمية واسعة، وقد ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات وأصبحت أفكاره جزءاً من تراث الرواية العالمية، وخاصة رواية «الجريمة والعقاب» و«الإخوة كارامازوف» و«الإنسان الصرصار» والتي عبرت عن فلسفته بأكمل صورة، إضافة إلى باقي رواياته التي كانت على جانب كبير من الأهمية.

وُلد فيودور دستويفسكي في 11 نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1821 بموسكو، فكان الابن الثاني بين سبعة أبناء للطبيب الجراح ميخائيلوفيتش والسيدة ماريا دستويفسكي، حيث كان والده يعمل طبيباً عسكرياً ينحدر من فئة رجال الدين ومُنح لقاء خدمته لقب «نبيل»، بينما كانت والدته تنتمي إلى فئة التجار، وقد غرست في ابنها المشاعر الدينية، لكن ولدها ولع منذ طفولته بميول التمرد، وانبهر بالطموحات المثاليى. وقد أثرت في حياته عدة عوامل، كان منها عوامل شخصية، وأخرى مجتمعية.

كان أبوه رجلاً غليظ الطباع، إضافة إلى أنه كان مريضاً بالصرع والذي أورثه إلى ابنه فيودور، وكان مدمناً على الخمور، سريع الانفعال، وكان له عدة مواقف مؤثرة في ابنه وخاصة حكاية تسلط الأب في التعامل مع أبنائه، التي كانت تظهر عندما يعود من عمله، فيأمر أولاده بالجلوس

بصمت مطلق، وكان يأمرهم بالوقوف إلى جانبه بالتناوب لإبعاد الذباب الذي يقترب من وجهه عندما يلجأ إلى النوم، ثم كانت حكاية موته التي اختلفت فيها الروايات، مما كان لذلك أثره في حياة فيودور.

كان يعمل ميخائيلوفيتش في مستشفى «مريانسكي»، وكان هذا المستشفى للفقراء، في حي من أسوأ أحياء موسكو، حيث إنه يحوي على مقبرة للمجرمين، ومنزلاً للمجانين، ودار أيتام للأطفال الضائعين، فكان لهذه المنطقة التأثير القوي على شخصية ونفسية فيودور، حين كان يتمشى في حديقة المستشفى ويجلس مع المرضى ويسمع حكاياتهم كما أثار شفقته اضطهاد وقلق الفقراء في الحي، إضافة إلى موت أمه بمرض السل في عام 1837، فكان لكل ذلك أثره العميق في نفسيته.

دخل فيودور دستويفسكي، كلية الهندسة الحربية في سانت بطرسبرغ، وتعلم الرياضيات التي كان يحتقرها ودرس الأدب عن «شكسبير» و«فيكتور هوجو» و«هوفمان»، ومع دراسته للرياضيات إلا أن تركيزه كان على مواد أخرى، ومع أنه اجتاز الامتحان وحصل على درجات جيدة في الاختبار، فقد كتب مسرحيتان رومانسيتان استوحى مادتهما من الرومانسي الألماني «فريدريك ستشيللر» وهما «ماري ستوارت» و«بوريس جودونوف».

وفي عام 1848 انضم إلى جماعة «التفكير المتحرر»، جماعة «بتراشيفسكي» وكانت شبه سرية وكان القيصر «نسار نيكولاس» شديداً حيال الجماعات التي تعمل في الخفاء، فأُلقي القبض عليه مع باقي أعضاء الجماعة عام 1849، وقُدِّم للمحاكمة، فحُكم عليه بالإعدام، وبينما كان ينتظر حبل المشنقة ليلتف حول عنقه، تغير حكم الإعدام في آخر لحظة إلى

النفي مع العمل الشاق لمدة أربع سنوات في سيبيريا، ثم تشفَّع له بارون عند الإمبراطور، فجُنِّد بعد ثمانية أشهر في الجيش ورُقِّي لضابط ثم إلى ملازم ثانٍ واستعاد بذلك حقوق النبالة، ولكن لم يُسمح له بالذهاب إلى العاصمتين بطرسبرغ وموسكو، ثم رقي إلى رتبة ملازم أول، وقد وصف حياته وهو يقضي حكم الأعمال الشاقة وقساوة السجن والثكنات العسكرية المتداعية.

لم يستمتع دستويفسكي الحياة العسكرية، لعدم تمكنه من العودة إلى الحياة الطبيعية وممارسة نشاطه الأدبي بحرية، وبسبب مرضه أحيل على التقاعد، فانتقل إلى مدينة «تفير» في شمال غرب روسيا، لكنه ظل تحت رقابة الشرطة.

في عام 1843 ترك دستويفسكي كلية الهندسة، وعاد لإكمال ترجمة رواية «أوجيني غراندي» للروائي «بلزاك»، لكنها لم تأخذاً اهتماماً على قدر طموحه الذي أراده، فقام بكتابة من خياله الخاص حيث كانت رسالة «الفقراء» المهمة ونشرها في مجلة «المعاصرة» فتقبلها الناس بتهافت شديد، وحينها أعلن مدير تحرير المجلة الشاعر «نيكولاي نيكراسوف» بأنه ظهر جوجل جديد (كاتب روسي مرموق) وأيَّد رأيه «بلينسكي» وأتباعه، وبذلك أصبح دستويفسكي من الأدباء المشهورين في روسيا، وكان آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره، وتنبأ حينها «بلينسكي» بأن دستويفسكي سيصبح أحد أفضل كُتّاب روسيا. وفي عام 1870 أصدر بمساعدة شقيقه ميخائيل مجيلة «الزمان» لكنها أُغلقت، ثم عاود إصدارها تحت عنوان جديد «العصر»، وقد نشر فيهما مؤلفاته: «ذكريات من منزل الأموات» و«مذلون ومهانون» و«رسائل من القبو السري».

وفي مطلع ستينيات القرن التاسع عشر، قام بزيارة بعض البلدان الغربية، وهناك أولع بلعب القمار، مما جعله بحاجة دائمة إلى الأموال، فاضطر لعقد صفقات غير متوازنة مع أصحاب دور النشر والطباعة لإصدار رواياته.

بعد وفاة أخيه توقفت مجلته عن الصدور، فأسرع بإنجاز روايته «الجريمة والعقاب» وصادف ذلك أن التقى بالكاتبة «آنا ستيكينا» فتزوجها، وقامت هي بتسيير أمور زوجها المالية، وبالدفاع عن حقوقه لدى نشر روايته الجديدة، مما ساعده على الحصول على المال مقابل أعماله الأدبية، وتعهد لها مقابل ذلك بالتخلي عن القمار، وقد أوضح ذلك في روايته «المقامر» والتي صدرت عام 1866.

انتقل دستويفسكي بعدها إلى مدينة «ستاريا روزا» بشمال غرب روسيا حيث أمضى فيها الأعوام الثمانية الأخيرة من حياته، وكانت مرحلة مثمرة في نتاجه الأدبي حيث أصدر روايته «الشياطين» عام 1872، و«المراهق» عام 1875، و«الإخوة كارامازوف» عام 1880. فذاعت شهرته في أنحاء روسيا وخاصة بعد إلقاء كلمته المشهورة في مراسم افتتاح تمثال الشاعر الروسي «ألكسندر بوشكين» في موسكو.

لقد أولع دستويفسكي منذ حداثته بالأدب، وتشكل اتجاهه تحت تأثير تجربته الروائية من «بوشكين وجوجل»، وكذلك وكما أشار الكثير من الباحثين إلى أهمية كل من «بلزاك، وجورج صاند، وفيكتور هوجو، وديكنز» وبرز في الساحة الأدبية في أربعينات القرن الماضين وبرز إنتاجه منذ أول رواية له وهي «المساكين» بالمنهج الفني الجديد، متجهاً إلى البحث العميق في نفس أبطاله، وكان من أكثر الموضوعات المحببة عنده وصف

حياة الفقراء، بتصويره العالم الروحي والأخلاقي للفقراء، وبذلك حملت رواياته بصمة الواقع المعاصر، ورسم نمط البطل المفكر، وسيطر عليه شك عميق تجاه المُثُل الثورية الاشتراكية والليبرالية، وتأرجح بين الاتجاهات الفوضوية المدمرة وبين الأفكار الدينية التي تدعو إلى الخنوع، وبهذا اعتبرت رواياته ذات أهمية عالية بالنسبة لتطور الحركة الثورية في روسيا، لأنها كما وصفها الباحثون تحمل حلماً بالتغيير وبعث مستقبل مشرق للوطن ونموذجاً للرواية الاجتماعية النفسية وتميزها بالديالوج الحار وعنصر الإثارة الذي يخفف من حدة اصطدام شخصياته، وبذلك كان أحد أئمة الرواية الروسية بما تعالجه من أفكار لمشاكل المجتمع الروسي آنذاك خاصة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي.

وقد صدر له عدداً من أعماله القصصية والروائية وكانت على النحو الآتي:

1 - القصص القصيرة والسردية:

- قلب ضعيف، قصة قصيرة، 1848.
- شجرة عيد الميلاد والزواج، قصة قصيرة، 1848.
- قصة أليمة، قصة قصيرة، 1862.
- ذكريات شتاء عن مشاعر صيف، سرد قصصي، 1863.
- التمساح، قصة قصيرة، 1865.
- مذكرات كاتب، سرد قصصي، 1873-1881.
- المثل، قصة قصيرة.
- زوجة آخر ورجل تحت السرير، قصة قصيرة.

2- الروايات، وجاء معظمها روايات طويلة.

- المساكين، وهي أولى روايته، 1846.
- الليالي البيضاء، وهي الرواية القصيرة الوحيدة للكاتب، 1848.
- حلم العم، 1859.
- مذلون ومهانون، 1861.
- ذكريات من منزل الموات، 1862.
- في قبري، 1864.
- الجريمة والعقاب، 1866، وقد ترجمت إلى العربية ومثلث باسم «سونيا والمجنون».
- المقامر، 1867.
- الأبله، 1867-1869.
- الزوج الأبدي، 1870.
- الشياطين، 1872.
- الإخوة كارامازون، وهي الرواية الأخيرة في حياته حيث توفي عام 1881 حيث عمّ الحزن أنحاء روسيا ومشى في جنازته نحو ثلاثين ألفاً، وتعتبر هذه الرواية قمة عطاء الكاتب، فقد تُرجمت إلى العربية وتحولت إلى فيلم مصري بعنوان «الإخوة الأعداء» ولاقى استحساناً كبيراً من المشاهدين.

وكان من رواياته المهمة والذائعة الصيت روايته التي بعنوان «رسائل من أعماق الأرض» أو «الإنسان الصرصار»، وقد قدم لها بالقول:

«إن كاتب هذه المذكرات، والمذكرات نفسها، وهميان بالطبع، وبالرغم من ذلك فإنني لا أقول إنه من الممكن أن يوجد مثل هذا الشخص

في المجتمع وحسب، وإنما أقول إنه موجود فعلاً، ويستطيع القارئ أن يتأكد من ذلك، إذا ألقى نظرة على الظروف التي ينهض عليها مجتمعنا، لقد حاولت أن أصف أحد أفراد الماضي القريب للرأي العام وصفاً أدق وأوضح من الوصف الشائع، لأنه يمثل جيلاً ما يزال على قيد الحياة، إننا نرى هذا الشخص مقدّماً إلينا نفسه وآراءَه في القسم الأول، وكأنه يحاول أن يوضح الأسباب التي أدت إلى ظهوره في مجتمعنا، أما القسم الثاني: فإنه يحتوي على المشاهدات الحقيقية المتعلقة بشخصه والخاصة بحوادث معينة من حياته...»

فيودور دستويفسكي

لقد جاءَت الرواية في قسمين: وكان عنوان القسم الأول: تحت الأرض، حيث صوره الكاتب صاحب هذا القسم، بأنه رجل من السراب، وهمي، أربعيني لا يُعرف له اسم، يسكن في مدينة بطرسبرغ الروسية، مريض، يعيش حالة امتعاض دائمة، ناقم على المجتمع، مسرف في جلد ذاته، يائس ومتناقض، وجد في العزلة ملاذاً، كتب فيها مذكراته لا لتُقرأ ويتداولها الناس، إنما يحاول أن يجرب إن كان بمقدور الإنسان أن يكون صريحاً ولو مع نفسه، ولا يخشى من قول الحقيقة، فكانت وسيلته مخاطبة قراء وهميين، وقد عزّى نفسه في هذا القسم الذي احتوى على نظرياته وأفكاره ورواه، فعرّى نفسه تماماً، فكتب وحلل، وانفعل، وصارع ما بداخله حتى أنتج رؤيته وأفكاره.

وفي القسم الثاني، أوضح مشاهداته الحقيقية المتعلقة برجل السرداب، وأثبت حوادث معينة من حياته، ففسر أفكار هذا الرجل، في لقاء له مع

الضابط وأصدقاء الدراسة وبائعة الهوى ليزا. فتولد لديه أفكار مكتظة سكبها في قالب عقلي حيث جمع أفكاره بطريقته، وفي كل مرة من قراءته تتولد للقارئ مواقف الشخصية التي تعبر عن الاحتجاج وعدم الرضا عن الواقع، فقد عُرف عنه أنه يحتقر الرياضيات، ويكره أن يعيش طراز داروين ولا يريد أن تتقيد حريته في 2 + 2 = 4، فيتساءل في روايته «ما هو الإنسان بدون رغباته؟ بدون حرية إرادته وبدون اختياره؟».

وكأنه أراد أن يرسخ فكرته «كل أعمال الإنسان تتألف في الحقيقة من شيء واحد هو إثباته لنفسه في كل مرة أنه إنسان وليس مفتاح بيانو».

وعند التعمق في قراءة الرواية، يبدو للقارئ أن الكاتب يتحدث عن الرجل الوهمي ويحلل مواقفه حول الواقع الذي يراه ويعايشه ويعبر عنه بمقاييس معينة اجتماعية أو فلسفية تتعلق بحرية الإنسان المطلقة المنبعثة من ابتكاره، ليثبت القوانين العقلية أو المنطقية، ثم يستحضر فظائع البشرية في التصرف بطريقة غير عقلانية عندما تتوافر له وسائل القوة، ويعقد مقارنة بين ما هو خير وجميل وبين ما هو شر، ثم يسقط فكره على حالات أفراد أو مجتمعات عندما تسلب إنسانية الإنسان ويلغى الفرد ويهمش وتصادر حريته ويكبل بالقيود أو يعاد تشكيله بما يتوافق مع بيئته أو مجتمعه، وتتغير خصائصه إلى كائن لا يملك إلا أن يستطيع فيطيع ويتبع ويقلد لا أن يبتدع ويعيش كما يرغب الآخر لا كما هو يريد، فينكمش وتُقتَل فاعليته ويُلغى تفرّده واستقلاليته، وإذا حدث هذا يفقد الإنسان شهيته في الحياة فينسحب منها إلى اللاحياة...

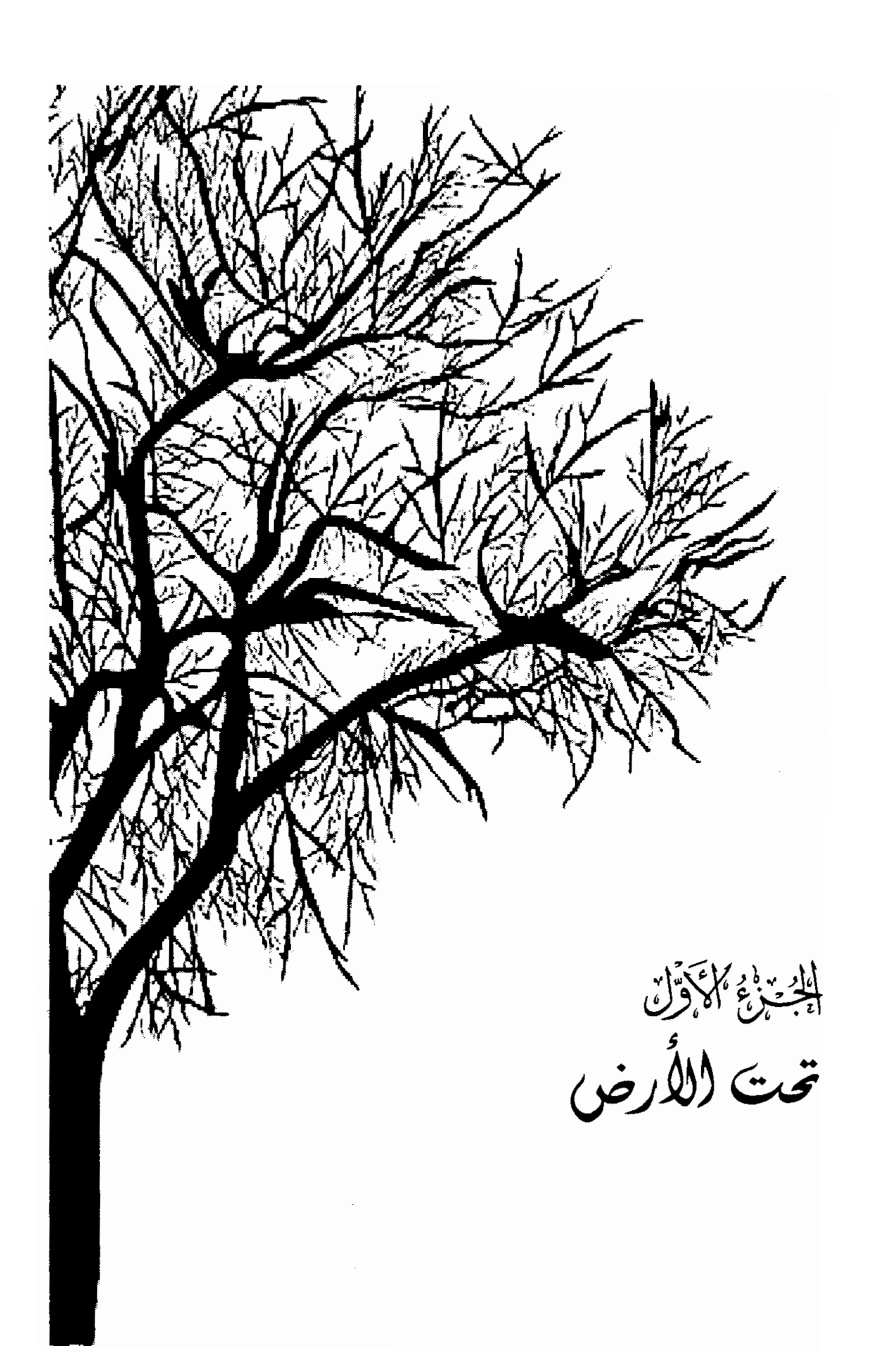
ثم يتعرض إلى المستحيل الذي وصفه بالجدار الصخري الذي عبَّر عنه بالقوانين الطبيعية واستنتاجات العلوم الطبيعية والرياضيات، معلقاً

على نظرية داروين (أصل الإنسان من القرد) ويبين أن عليك أن توافق إلا إذا أثبت عكس ذلك.

وفي نهاية الرواية يحاول معالجة تساؤلاته عن ذلك الرجل الوهمي بكلمتي: ماذا؟ ومن؟ ومحاولة إسقاط حالة ذلك الرجل على المجتمع، واستبدال القوانين الطبيعية والفلسفات والنظريات العقلية التي تعرض لها.

وهنا لا بد من الاعتراف أن دستويفسكي استطاع تصوير ردود الأفعال الظاهرة والصراعات الباطنة، وجعل القارئ مجبراً على معايشتها، ولذلك فإن حقيقة القول إن روايته «الإنسان الصرصار» ليست سهلة، تحتاج إلى قراءة معمقة بحواس متيقظة، لجمع ما بعثره الكاتب في ثناياها، فكاتبها هو دستويفسكي ومحورها هو الإنسان بجوانبه المختلفة، عاشها الراوي بكل ما فيها من جدية واضحة وسخرية لاذعة تصل أحياناً إلى حد الاستفزاز، مركبة غاية التركيب لا يمكن اختزالها في بُعد واحد أو بما يسمى «العلل الأولى»، ولكن بممارسات الإنسان كاملة بظواهره ووظائفه. والنظر إلى الظروف التي يجب أن ينهض عليها المجتمع.

❊ ❊ ❊



الجزء الأول

تحت الأرض

1

أنا إنسان مريض.. إنسان حقود، إنسان ممقوت. وأظن أن كبدي مريضة، إلا أنني على أي حال، لا أعرف شيئاً من مرضي، فلم استشر طبيباً، ولم أفعل ذلك قط، ولذلك لا أعرف علّتي. رغم أنني أحترم العقاقير والأطباء، زد على ذلك أنني متعلق بالخرافات إلى الحد الذي يجعلني أحترم العقاقير، ومهما يكن الأمر (فإنني مثقف إلى حد يكفي ليجعلني لا أصدق الخرافات، مع أنني أؤمن بها). إن حقدي هو الذي يجعلني أرفض استشارة أي طبيب، وهذا ما لست أظنكم قادرين على فهمه، في حين إنني أفهمه جيداً. على أنني لا أستطيع أن أوضح إيضاحاً كافياً من هو الذي أريد إذلاله بحقدي في هذه الحالة، إلا أنني أدرك إدراكاً تاماً أنني لا أستطيع أن أؤذي الأطباء في شيء بمجرد عدم استشارتهم، بل إنني أعرف جيداً أنني أوذي نفسي بذلك، لا شخصاً آخر. على أن ذلك لا يغير شيئاً من حقيقة أن الحقد هو وحده الذي يمنعني من استشارة الأطباء. إن كبدي مريضة، حسناً - لنذهب إلى الجحيم!

مر عليّ وقت طويل وأنا على هذه الحال - عشرون عاماً. أما الآن فإنني في الأربعين. لقد كنت موظفاً حكومياً، إلا أنني لست كذلك الآن. كنت موظفاً حقوداً شديد الخشونة، لأنني كنت أجد لذة قصوى في ذلك. ولم آخذ رشوة من أحد، ولهذا فأنت تجد أن خشونتي لم تكن غير تعويض

عن ذلك، على الأقل. (تلك نكتة باردة، أليس كذلك؟ إلا أنني لن أشطبها. لقد كتبتها معتقداً أنها ستكون نكتة بارعة، غير أنني اكتشفت الآن أنني لم أكتبها إلا لكي أتحدث عن نفسي بطريقة مكروهة، أجل لن أشطبها، لأنني أقصد من ورائها شيئاً).

كل الناس يقفون أمام مكتبي للحصول على ما يحتاجون إليه من الاستعلامات، وكنت أَصُرُّ على أسناني، وأشعر بمتعة عظيمة حين أُفلح في إيلام أحدهم، وقد نجحت في ذلك كثيراً. لقد كانوا جبناء خائفين، وذلك أمر طبيعي، لأنهم كانوا يأتون سائلين شيئاً. على أنه كان هنالك ضابط لم يكن في استطاعتي احتماله، لأنه، وبكل بساطة، لم يكن يريد أن يذل نفسه، وإنما كان يُسمعني صليل سيفه بطريقة كريهة، وظللت أحمل بغضائي له طيلة ثمانية عشر شهراً، بسبب ذلك السيف، وأخيراً تغلبت عليه فترك تلك العادة. كان ذلك في شبابي على كل حال.

أتعرفون أيها السادة ما هي الميزة الأساسية في حقدي؟ إن المشكلة كلها والجانب المؤذي فيها كامنان في أني، حتى في أشد لحظات حقدي، أحس في أعماقي بالخجل من أنني لم أكن غير حقود في الواقع وحسب، وإنما لم أكن أشكو من شيء قط، كنت أخجل من أنني لم أكن غير ضارب الأرض بلا هدف، يفزع العصافير الآمنة في طريقه، واجداً في ذلك متعة أي متعة!

وقد يصل حقدي إلى حد ظهور الزبد على طرفي فمي، إلا أنك تستطيع أن تجعلني مطواعاً هادئاً إذا أعطيتني لعبة لألعب بها، أو قدحاً من الشاي فيه قطعة من السكر، بل قد تفلح بذلك في مس أوتار أعماقي. لا أنني، بعد ذلك، أصر على أسناني وأظل ساهراً الليالي الطوال وأنا أعاني من الخجل. أجل كنت أفعل ذلك. لقد كنت أكذب حين قلت إنني كنت

موظفاً حقوداً، كنت أكذب بدافع الحقد. ولم يكن الأمر يتعدى استمتاعي بأولئك الناس وذلك الضابط. أما الحقيقة فهي أنني لم أكن حقوداً لقد كنت أحس في أعماقي بأشياء أخرى تريد أن تجد لها مخرجاً، إلا أنني لم أكن أسمح لها بذلك! وكنت أُصِر على عدم السماح لها بذلك! كانت تلك الأشياء تعذبني وتخجلني، وكانت تجعلني أرتجف، وأشعر بالمرض، وها أنا أشعر بالمرض فعلاً! ألا تظنون أيها السادة، أنني لا بد آسف الآن على شيء ما؟ وأنني أطلب الغفران منكم؟ إنني متأكد من أنكم تظنون ذلك، إلا أنني أؤكد لكم على كل حال أنني لا أكترث إذا كنتم...

ولم يقتصر الأمر على أنني لم أتمطع أن أكون حقوداً، وإنما لم أكن أعرف كيف أكون أي شيء! لم أستطع أن أكون حقوداً أو طيب القلب، ولا نذلاً أو أميناً ولا بطلاً أو حشرة. إنني أعيش حياتي الآن في هذه الزاوية، مهيناً نفسي بمؤاساة حاقدة غير مجدية تتمثل في قولي لها: إن الذكي لا يمكنه أن يكون شيئاً خطيراً، وأن الأحمق وحده هو الذي يمكنه أن يكون أي شيء.

أجل، إن الفرد في القرن التاسع عشر يجب أن يكون مخلوقاً لا شخصية له، أما الإنسان الذي يتميز بالشخصية، الإنسان الفعال، فهو مخلوق محدود. هذا هو ما تعلمته طيلة هذه السنوات الأربعين.

إنني في الأربعين من عمري الآن، ولعلك تعرف أن أربعين عاماً هي حياة كاملة، هي منتهى التقدم في العمر. أما أن يعيش الإنسان بعد الأربعين، فذلك أمر سيء، عادي، منافي للأخلاق! ومن هو هذا الذي يعيش (حقاً) بعد الأربعين؟ أجب عن ذلك بإخلاص وأمانة، وسأخبرك أنا بمن يفعل ذلك: إنهم الحمقى والأفراد الذين لا قيمة لهم. إنني ألقي بهذه الحقيقة في وجوه كل المسنين، والشيوخ المحترمين، المبجلين ذوي

الشعور البيضاء! بل إنني ألقي بهذه الحقيقة في وجه العالم كله! ولي الحق في ذلك، لأنني سأعيش إلى الستين، إلى السبعين، إلى الثمانين... هه! انتظر، دعني ألتقط أنفاسي.

إنكم تظنون أنني أريد أن أسليكم أيها السادة، إلا أنكم مخطئون في هذا أيضاً، فلست ذلك الإنسان المرح الذي تتصورونه، أو ربما تتصورونه، رغم أن هذا الهذر يضايقكم، (وإنني لأشعر بأنه يضايقكم). إنكم تسألونني من أنا؟ أما جوابي فهو أنني كنت أعمل موظفاً، لأنني كنت أريد أن أعيش (ولكي أعيش فقط)، ولما توفي أحد أقاربي البعيدين في العام الماضي وترك لي ستة آلاف روبل في وصيته، تركت وظيفتي حالاً، وقبعت في زاويتي. ولم تكن هذه الزاوية غريبة عليّ، فقد كنت أقضي فيها بعض الأوقات، إلا أنني استطعت بعد ذلك أن أستقر فيها نهائياً. إنني أعيش في غرفة مفزعة كئيبة في أحد أطراف المدينة. أما خادمتي فهي عجوز ريفية خشنة الطباع بسبب غبائها، كريهة الرائحة دائماً. وقد أخبرني البعض بأن مناخ بطرسبرغ لا يلائمني، وأن الحياة فيها لا تتناسب مع دخلي المتواضع. إنني أعرف هذا جيداً، أكثر مما يعرفه هؤلاء المشيرون والناصحون.. إلا أنني باقٍ في بطرسبرغ ولن أغادر بطرسبرغ! لن أغادرها لأنه.. بل إنه سيان عندي أن أغادرها أو أن أبقى فيها.

ترى ما الذي يستطيع أن يتحدث به الإنسان السوي ويحس بأعظم المتعة؟

الجواب: أن يتحدث عن نفسه.

* * *

2

أود أن أخبركم الآن أيها السادة، سواء كان يهمكم هذا أم لا، لماذا لم أصبح حشرة؟ لقد حاولت أن أكون حشرة عدة مرات، إلا أنني لم أكن أستحق حتى أن أكون حشرة. أقسم أيها السادة أن شدة الإدراك مرض - مرض حقيقي خطير. إن حياة الإنسان المألوفة لا تتطلب منه أكثر من إدراك الإنسان العادي، أي نصف أو ربع الإدراك الذي يتمتع به الإنسان المثقف في هذا القرن التاسع عشر الكئيب، وخاصة الإنسان الذي يقوده سوء حظه إلى سكنى بطرسبرغ، أعظم مدينة من الناحية الفكرية والهدفية في العالم (هنالك مدن هادفة ومدن لا هادفة). يكفي أن يكون للإنسان من الإدراك ما يعيش به الناس المباشرون (كما يسميهم البعض) والفعالون في هذه الحياة. أراهنكم على أنكم تظنون أنني؛ إنما أكتب هذا كله تظاهراً، أي لكي أكون منكتاً على حساب هؤلاء الفعالين، وأكثر من هذا، إنني أتظاهر بذلك كما تظاهر ذلك الضابط بالعظمة حين أصلد سيفه، ولكن من هو هذا الإنسان الذي يستطيع أن يفخر بأمراضه ويختال بها؟

على أن كل واحد منا يفعل ذلك في الواقع، وغالباً ما تجد الناس يفخرون بأمراضهم، ولعلي أفعل ذلك أكثر من أي إنسان آخر. ولن نناقش هذا، وسأعترف بأن مفهومي كان هراء إلا أنني مقتنع تماماً بأن الإدراك الشديد، أو أي نوع من الإدراك، هو في الحقيقة مرض، وإنني لأصر على

ذلك. دعنا نترك هذا الآن بضع لحظات، وأخبرني لماذا أجد نفسي في اللحظات، في اللحظات ذاتها التي أجد نفسي فيها قادراً جداً على الشعور بكل ما هو (خير وجميل)؟ كما اعتاد البعض على القول يوماً، أجد نفسي، كأن ذلك مقدر لي؟ لا أشعر وحسب بل أقوم بارتكاب أشياء قذرة.. أشياء كتلك التي ربما يقترفها الجميع، أشياء حدثت لي، وكأن حدوثها كان مقصوداً، في الوقت الذي كنت أدرك فيه أشد الإدراك أنها يجب أن لا ترتكب. كنت كلما ازددت إدراكاً للخير، (لما هو خير وجميل) ازددت انهماكاً وانحداراً إلى الحمأة، واستعداداً للغوص فيها حتى النهاية. أما الأمر الرئيسي في ذلك فهو أنه لم يلح عرضياً، وإنما لاح وكأنه مقصود، يجب أن يحدث. ولاحت تلك الحالة وكأنها حالتي الطبيعية المعادية، لا مرضاً ولا فساداً، ولهذا اختفت كل رغبة في نفسي للكفاح ضد هذا الفساد، وانتهيت إلى الاعتقاد، (ربما إلى الإيمان الفعلي) بأن هذه الأمور هي أحوالي الطبيعية. إلا أنني قاسيت في البداية، قاسيت الكثير من العذاب في ذلك الكفاح، ولم أصدق أن ذلك هو ما يحدث بالفعل للناس الآخرين أيضاً، وإنما أخفيت هذه الحقيقة طيلة حياتي، وكنت خجلاً (بل لعلي ما أزال خجلاً). لقد بلغ بي الأمر أن صرت أحس بنوع من المتعة الشاذة الحقيرة في العودة إلى البيت للركون إلى زاويتي في ليلة كريهة من ليالي بطرسبرغ، وأنا مدرك تماماً أنني قمت في ذلك اليوم بارتكاب شيء كريه ثانية، وأن ما كان لا يمكن أن لا يكون، وهكذا أقرض في أعماقي، أقرض في نفسي حزيناً، أسلّ نفسي حتى يتحول الندم إلى نوع من العذوبة اللعينة المخجلة وأخيراً إلى استمتاع حقيقي. أجل، إنه يتحول إلى استمتاع، إلى استمتاع! وأصر على ذلك. لقد ذكرت هذا لأنني أريد أن أعرف ما إذا كان الآخرون يشعرون بمثل هذا الاستمتاع، وسأشرح ذلك.

يحدث هذا الاستمتاع بسبب إفراط في إدراك انحطاطك، وشعورك بأنك قد وصلت إلى آخر الحدود، وأن ذلك رهيب، إلا أنه لا يمكن أن يكون غير ذلك، وأنه ليس في استطاعتك أن تنجو منه، وأنه ليس في استطاعتك أيضاً أن تكون إنساناً مختلفاً، وأنه حتى إذا كان لديك شيء من الإيمان ومتسع من الوقت لتصبح إنساناً آخر، فإنك لا تريد ذلك، وحتى إذا رغبت في ذلك، فإنك لن تفعل شيئاً منه، لأنه ربما لا يوجد في الواقع ذلك الشكل الذي تريد أن تكون. إن أفظع ما في الأمر ينجلي في أن ذلك كله متفق مع القوانين الأساسية في الطبيعة، والتي تميز الإدراك الشديد، بما في ذلك القصور الذاتي (الاستمرارية الذاتية) التي تعتبر نتيجة مباشرة لتلك الأول، ولذلك فإنك غير قادر على تغيير نفسك فحسب، وإنما لا تستطيع أن تفعل شيئاً بالمرة أيضاً. ونستنتج من ذلك أن الإنسان غير ملوم إذا صار نذلاً من جراء هذا الإدراك الشديد، وفي ذلك عزاء كبير للنذل الذي يدرك أنه نذل فعلاً. ولكن كفى... لقد هذرت كثيراً، دون أن أوضح شيئاً. ولكن كيف يمكنني أن أوضح ما هو الاستمتاع؟ سأوضحه على أي حال، وسأصل إلى جوهره، لأن ذلك هو الذي يجعلني أمسك بالقلم...

إنني مثلاً مغرور جداً، كالأحدب والقزم في شكلهما ولؤمهما، إلا أنني لم أعدم لحظات كنت فيها، لو حدث وصفعني أحد، أشعر بكامل الغبطة، وإنني أقولها جاداً، وأكرر أنني في أمثال تلك اللحظات أستطيع أن أجد ذلك الاستمتاع العجيب حتى في الصفعة، الاستمتاع باليأس طبعاً، ويمثل اليأس أقصى درجات الاستمتاع، خاصة حين يدرك إنسان تماماً أنه في موقف ميئوس منه. أما حين يتلقى الإنسان صفعة على وجهه - فإنه يشعر بالانسحاق والتضاؤل. على أن أسوأ ما في ذلك هو أنني أنا الملوم دائماً وفي كل شيء، مهما كانت نظرتي إلى الأمر، غير أن ما يذهلني هو أنني

لا أستحق هذا اللوم، لأنني مذنب أو مقصر في شيء، وإنما لأن قوانين الطبيعة تحكم بذلك، كأن أكون ملوماً لأنني أذكى من كل من حولي من الناس، إلا أنني كنت أحياناً أخجل من ذلك خجلاً شديداً. على أنني على أية حال، عشت حياتي كلها محولاً عيني عن الناس، لأنني لم أكن أستطيع أن أنظر في وجوههم. كنت ملوماً أيضاً لأنه حتى لو كان لدي شيء من الشهامة والصبر فإن ذلك يعني مزيداً من العذاب بالنسبة لي، لأنني أحس بأن الشهامة والصبر أشياء لا فائدة منها... أجل، لن يكون في استطاعتي أن أفعل أي شيء لمجرد أنني شهم وصبور، إذ لا يمكنني أن أسامح أحداً، لأن من صفعني قد يكون مدفوعاً بتأثير القوانين الطبيعية التي لا يملك الإنسان أن يسامحها، ولا يمكنني أن أنسى، لأنه حتى إذا كانت تلك الصفعة بتأثير القوانين الطبيعية، فإنها ما تزال تعتبر إهانة على أي حال. ولو كنت أريد أن أكون أي شيء آخر غير الإنسان الشهم، ورغبت في الانتقام من صانعي، فلن يكون في استطاعتي الانتقام من أي إنسان لأي سبب، لأنني لن أقرر ذلك، حتى لو كنت قادراً عليه. أما لماذا لن أقرر ذلك؟ فهذا ما سأتحدث عنه قليلاً.

* * *

3

يدهشني أولئك الذين يستطيعون أن ينتقموا ممن يهاجمهم، وأن يدافعوا عن أنفسهم، ترى كيف يفعلون ذلك؟ ما أظنهم إلا وقد تملكتهم رغبة الانتقام تملكاً بحيث لم يبقَ فيهم أي دافع آخر. إن الرجل منهم ليندفع إلى هدفه كاندفاع الثور المقاتل، لا يقف إلا إذا اعترضه جدار. (ويهمني أن أذكر بالمناسبة أنه حين يواجه هؤلاء الأفراد المباشرون الفعالون الجدار فإنهم يقفون أمامه حيارى مكتوفي الأيدي، إلا أنهم لا يعتبرون الجدار وسيلة للتملص، في حين نقبله نحن الذي لا نؤمن بذلك. يقف أولئك الأفراد أمام الجدار حائرين، إلا أنهم يعتبرونه شيئاً مهدئاً مطمئناً، شيئاً مرضياً من الوجهة الأخلاقية، نهائياً - وربما اعتبروه غامضاً... إلا أن هذا الغموض لا يعدو احتمال وجود جدار ثاني...).

إنني أعتبر مثل هذا الفرد المباشر الإنسان الطبيعي الحقيقي، أي كما شاءته أمه الحنون، الطبيعة، أن يكون، حين وضعته بلطف على هذه الأرض. إنني أحسد مثل هذا الإنسان إلى الدرجة التي يصبح فيها وجهي أخضر من شدة الحسد. إنه أحمق. ولست أصر على ذلك، إلا أنني أقول إنه ربما كان هذا الإنسان الطبيعي يتميز بالحمق، فهل لديكم ما يثبت العكس؟ بل ربما كان الحمق صفة حميدة. إنني مقتنع بذلك تماماً، لأنكم إذا فكرتم في

التناقض الذي يتجلى في الإنسان الطبيعي، الإنسان الذي يتمتع بالإدراك الحاد، الذي لم يأتِ من أحضان الطبيعة، وإنما جاء من أنبيق التقطير! (هذه أفكار صوفية أيها السادة، إلا أني أشك فيها أيضاً)، لوجدتموه يقف حائراً أحياناً أمام تناقضه إلى درجة أنه يظن نفسه فأراً، لا رجلاً، وقد يتمتع هذا الفأر بإدراك شديد لنفسه إلا أنه يظل فأراً مع ذلك، في حين يكون الآخر رجلاً، وبناءً عليه.. إلخ.. إلخ.. وأسوأ ما في الأمر أنه يعتبر نفسه فأراً دون أن يطلب منه أحد أن يفعل ذلك، وتلك نقطة هامة تستحق منا الالتفات إليها. دعنا إذن ننظر إلى هذا الفأر في أثناء قيامه بفعاليته. دعنا نفترض أنه يشعر بالإهانة أيضاً، (وغالباً ما يشعر هذا الفأر بأنه مهان)، وأنه يريد أن يثأر لنفسه أيضاً. بل قد يكون ميالاً إلى صب حقده الكريه الوضيع هذا على كل من يهدد وجوده أكثر مما يفعل الإنسان الطبيعي الحقيقي. لأن الإنسان الطبيعي الحقيقي ينظر إلى انتقامه على أنه عدل ونقاء وبساطة، مدفوعاً إلى ذلك بحمقه الأصيل، بينما لا نجد الفأر المدرك لنفسه إدراكاً حاداً يفعل ذلك، لأنه لا يؤمن بوجود ذرة من العدالة في ذلك. ولننظر الآن إلى العمل ذاته، إلى الانتقام نفسه. فبالإضافة إلى الحقارة الأصلية التي ترافقه، فإن الفأر سيء الحظ يفلح في خلق عدد كبير من الحقارات الأخرى التي تظهر على شكل شكوك أو تساؤل، مما يضيف إلى المشكلة الواحدة مشاكل أخرى كثيرة لا حلول لها، ويحيطها بمزيج قاتل عفن من الربكة والشك، والاحتقار الذي يبصقه الناس العمليون على هذا الفأر، أولئك الناس الذين يقفون حوله برصانة ويقيمون من أنفسهم حكاماً ونقاداً، ضاحكين منه حتى تؤلمهم جوانبهم الصحيحة من شدة الضحك. ولن يكون أمامه إلا أن يواجه ذلك بحركة استخفاف من غير اكتراث، ويبتسم مبدياً احتقاراً مفتعلاً لا يؤمن به هو نفس، ثم يزحف إلى حفرته مخفياً ذله وعاره.

وهنالك، في تلك الحفرة الكريهة العفنة، يعيش فأرنا المنسحق تحت وطأة تلك السخرية وذلك الاحتقار، منهمكاً في صب حقده البارد اللاذع الأبدي. ويستمر طيلة أربعين سنة على استعادة تلك الإساءة في ذهنه، ويتخيل أتفه تفاصيل ذلك الاحتقار، مضيفاً إليه من خياله تفاصيل أخرى أشد إهانة وإذلالاً، معذباً نفسه بذلك الحقد المتخيل.

ويخجل هو نفسه من تصوراته، ولكنه يستعيدها في خياله دائماً ويستمر على تذكر تفاصيله مخترعاً ضد نفسه أشياء أخرى لم يسمع بها من قبل، ويقتنع بأنها قد تحدث له، ولكنه في هذا وذاك لا يغتفر شيئاً قط. بل قد يبدأ بالانتقام من نفسه أيضاً، ولكنه يفعل ذلك شيئاً فشيئاً وبطريقة تافهة، وبدون أن يواجه نفسه صراحة، بل دون أن يؤمن بحقه في الانتقام، أو بنجاح انتقامه، ويعاني ويتعذب في انتقامه هذا مائة مرة أكثر من عذب «الإنسان» الذي يريد أن ينتقم منه، في حين أنه كإنسان، وإنني لأجد الجرأة على قول ذلك، لن يفعل شيئاً، بل لن يصيبها حتى ولا بخدش.

ويضطجع الفأر على فراش الموت، ويتذكر ذلك كله من جديد، تدفعه إلى تذكره الرغبة المتراكمة في صدره طيلة كل تلك السنين و... ولكنه فيما يشبه اليأس، ويشبه الإيمان، وفي إدراكه لحقيقة أنه يدفن نفسه حياً ليحزن في العالم الأسفل طيلة أربعين سنة، وفي ذلك الخذلان المدرك بحدة، والمشكوك في أمره مع ذلك، في جحيم الرغبات الجائعة المكبوتة والمحولة إلى الأعماق في حمّى ذلك التردد، في القرار النهائي الأبدي الذي يتراجع عنه في اللحظة التالية، في ذلك كله يجد طعم المتعة الغريبة التي تحدثت عنها.

وذلك كله هو من الصعوبة والعمق والتعقيد بحيث أن الأشخاص المحدودين نوعاً ما، والذين يتمتعون بأعصاب قوية لن يفهموا منه ذرة واحدة. ولكنكم ستقولون عابسين:

«من المحتمل أن الناس لن يفهموه لأنهم لم يتلقوا صفعة على وجوههم مثله».

فإذا قلتم ذلك حقاً، فإنه يعني اتهاماً لي بأنني قد جربت مثل هذه الصفعة في حياتي، ولهذا فأنا أتحدث عن ذلك حديث العارفين المجربين، وأراهن على أنكم تظنون ذلك. ولكن، أريحوا أذهانكم أيها السادة، إذ إنني لم أتلق صفعة على خدي، رغم أنه لا يهمني قط كل ما تقولونه عني. بل قد آسف أحياناً لأنني صفعت آخرين في حياتي، ولكن، كفى، فلم يعد هذا يجذب اهتمامكم وانتباهكم.

أما الآن فسأستمر في بحث أمر أولئك الناس الذين يتمتعون بأعصاب قوية، والذين يفهمون جانباً معيناً من جوانب المتعة، رغم أنهم يخورون عالياً كالثيران في بعض الأحيان، على أننا نستطيع أن نفترض أن هذا يعتبر من صفاتهم الممتازة، بيد أنهم كما قلت سابقاً، لا يواجهون مستحيلاً إلا وتراهم يتقاعسون في الحال. فأما المستحيل فإنه الجدار الصخري، وإذا سألتني: ما هو هذا الجدار الصخري؟ قلت لك إنه قوانين الطبيعة، واستنتاجات العلوم الطبيعة والرياضيات. فإذا قالوا لك إنك تنحدر من القرد الذي يمثل أصلك، فلا فائدة في الاعتراض على الطريقة التي يثبتون لك هذا بها، وإنما عليك أن تقبل ذلك منهم في الحال، وتعتبره حقيقة نهائية. وإذا أثبتوا لك أن قطرة واحدة من شحمك تعادل مائة ألف قطرة من شحم رفاقك من أبر الآخرين بالنسبة إليك، وأن هذا الاستنتاج هو النتيجة النهائية لكل ما يدعى بالفضائل والواجبات وغيرهما من الادعاءات والتصورات، إذا أثبتوا لك ذلك فعليك أن تقبله، لأنك لا تستطيع أن تفعل غير ذلك، لأن مرتين تعني اثنين في الرياضيات، فهل في استطاعتك أن تثبت عكس هذا؟

أقسم لك أنهم سيصرخون في وجهك، وأنه لا فائدة في نكرانك أن 2 + 2 = 4 ، كما أن الطبيعة لا تتوقف لتسألك رأيك، أو لتعنى برغباتك الخاصة، أو لتهتم بها إذا كنت تميل إلى قوانينها أو إذا كنت تكرهها، وعليك أن تقبل الطبيعة كما هي، ولذلك عليك أن تقبل كل نتائجها أيضاً. وهكذا ترى أن الجدار جدار.. وهكذا.. وهكذا..

يا للسموات ترى ماذا يهمني من أمر قوانين الطبيعة والرياضيات، إذا كنت، لسبب ما، أكره هذه القوانين، وأكره قاعدة أن 2 + 2 = 4، آه، تلك حماقة الحماقات، وذلك هو السخف بعينه. وأفضل من ذلك كله أن يفهم المرء المستحيلات والجدار الصخري ويدركهما، بدلاً من الوصول إلى اتفاق مع هذه المستحيلات ومع هذه الجدران الصخرية، في حين أنك تكرهها وتكره الاتفاق معها عن طريق ما لا محيص منه من المركبات المنطقية التي لا تقود إلا إلى النتائج التي تكرهها، بشأن الفكرة الأبدية. ثم إنك ستجد نفسك ملوماً بسبب هذا الجدار الصخري، رغم أنه واضح وضوح النهار أن لا ذنب لك في وجوده. وهكذا تنطوي على نفسك صارداً على أسنانك، صامتاً في ضعفك، وتغرق في استمرارية مريحة متأملاً في حقيقة أنه لا يوجد أحد بجانبك لتصب عليه انتقامك، ولن تجد أبداً شيئاً يمكنك أن تصب عليه حقدك، وسترى الأمر كله مجرد خدعة كبيرة وحيلة بارعة، بل ستراه فوضى ولن يتيسر لك جواب لكلمتيّ: ماذا؟ أو من؟

وبالرغم من كل هذه الأمور الغامضة والأحابيل، فإن ذلك كله لا يخلو من الألم، بل إن هذا الألم يزيد كلما زاد جهلك.

* * *

4

«هه، هه، هه! سيلذ لك حتى الألم الذي تستشعره في أحد أسنانك، إذا كان كل ذلك يلذ لك حقاً»!

هذا ما ستقوله، ضاحكاً. أما أنا فسأجيبك قائلاً: «أجل، هنالك لذة حتى في ألم الأسنان». لقد عرفت ألم الأسنان هذا منذ الشهر الماضي، ولهذا أستطيع أن أقول لك إن فيه لذة. غير أن الحقد الذي يحس به الناس في مثل هذه الحالة ليس حقداً صامتاً، وإنما يصاحبه الأنين، بيد أن هذا الأنين ليس مخلصاً صادقاً، وإنما هو أنين يفيض بالكراهية، ويدل على الكراهية ذاتها. ويعبر المستمتع بهذا العذاب عن استمتاعه بالأنين، ولو لم يستمتع بهذا الأنين لما أَنَّ قط. ويمكنكم، أيها السادة، أن تعتبروا ذلك مثلاً على ما أعنيه، وسأحاول أن أوضح هذا المثل أكثر.

إن هذا الأنين يعبر في البداية عن لا هدفية الألم، الأمر الذي لا يرضى به إدراكك. إنه يعبر عن نظام الطبيعة المشروع بأجمعه، ذلك النظام الذي تبصق عليه باحتقار والذي تتعذب لوجوده، في حين أن الطبيعة لا تعاني شيئاً من ذلك العذاب، ويعبر هذا الأنين أيضاً عن إدراك أنك لا تجد عدواً تعاقبه، وإنما تتألم وحسب وعن أنه بالرغم من كل العلاجات الطبية المحتملة، فإنك لا تستطيع إلا أن تطيع أسنانك التي تستعبدك بالألم، وقد تكف أسنانك عن إيلامك إذا أراد أحد ذلك، وإلا فإنها قد تستمر على

إيلامك ثلاثة شهور أخرى. وإذا ظل فيك شيء من العناد والاحتجاج بعد ذلك كله فأنت لا تملك إلا أن تلهب نفسك بالسياط أو تنطح الجدار أو تضرب عليه بقبضتك بكل قوتك، وليس في إمكانك أن ترضي نفسك بأكثر من هذا.

هذه الإهانات القاتلة، وذلك التهكم الذي تصبه على من تعرفه تؤدي كلها إلى متعة قد تؤدي أحياناً إلى أشد درجات المتعة الحسية. إنني أسألكم أيها السادة أن تصغوا إلى إنسان من مثقفي القرن التاسع عشر وهو يتألم من أسنانه، فستجدون أن أنينه في اليوم الثالث يختلف عن أنينه في اليوم الأول من الألم. ولن يكون أنينه أخيراً بسبب ألم أسنانه كما يفعل مثلاً أي فلاح عادي، فهو يختلف عنه لأنه متأثر بالتقدم وبالحضارة الأوروبية، أو كما يسمونه الآن: الإنسان الذي طلق الأرض والعناصر الوطنية. ستجدون أنينه كريهاً فياضاً بالحقد والبشاعة، متصلاً آناء الليل وأطراف النهار. وأنه ليعلم بأنه لا يفيد نفسه في شيء بهذا الأنين، وإنه ليعلم بأنه يزعج نفسه والآخرين بدون مبرر. وهو يعرف أيضاً أن الذين يسمعون أنينه، كأفراد عائلته مثلاً، يصغون إليه كارهين، غير مؤمنين به وبأنينه، مدركين بينهم وبين أنفسهم أنه يستطيع أن يئن ببساطة وبدون كل ذلك التظاهر والادعاء، كما أنهم يعرفون أنه إنما يمتع نفسه بذلك الأنين، شأنه فيه شأن من يمتع نفسه على حساب الآخرين بدافع من مزاحه السيئ أو حقده.

في هذا كله يوجد ذلك النوع من المتعة الحسية اللذيذة. وكأنه يقول لهم:

«إنني أقلقكم، وأذيب قلوبكم، وأمنه كل من في البيت من النوم. فابقوا يقظين إذن، واشعروا في كل لحظة بأن أسناني تؤملني، إنني أعرف أنني لا ألوح لكم بطلاً الآن، وإنما ألوح لكم شخصاً كريهاً مخادعاً كذاباً.

ليكن ذلك! وَإنه ليسعدني أن تعرفوا دخائل نفسي. إنكم تكرهون أن تصغوا إلى أنيني. حسناً، لتكرهوا ذلك وسأحاول أن أجعل أنيني كريهاً بقدر استطاعتي»..

لستم تفهمون شيئاً حتى الآن، أيها السادة. أليس ذلك؟ عليّ إذن أن أوضح ذلك أكثر، لعلكم تفهمون دقائق هذه المتعة. أتضحكون؟ هذا ممتع جداً. بيد أن نكاتي وسخريتي سخيفة، مبتورة، غامضة، تعوزني فيها الثقة بالنفس. ولكن ذلك طبيعي، لأنني لا أحترم نفسي. وهل يستطيع إنسان يتمتع بالإدراك أن يحترم نفسه؟

* * *

5

أيملك الإنسان الذي يستمتع بكل ما من شأنه أن يهبط بشخصه إلى الحضيض، أيملك مثل هذا الإنسان احتراماً لنفسه؟ ولست أقول هذا مدفوعاً بأي أسف أو ندم. ولن يكون في استطاعتي أن أقول: «سامحني يا أبي، ولن أفعل ذلك ثانية أبداً»، وليس ذلك لأنني لا أستطيع أن أقول هذه العبارة، على العكس، إذ قد يكون ذلك لأنني أستطيع أن أقول تلك العبارة أكثر من أي إنسان آخر، وبأية طريقة. لقد تعودت دائماً أن أجد نفسي محاطاً بمشاكل ليس لي ذنب فيها، وكان ذلك أسوأ جانب في الأمر.

وكنت أتأثر وأشعر بشعور المخطئ الجاني، وأذرف الدموع، وأخدع نفسي طبعاً، رغم أنني لم أكن أدعي بذلك أو أمثله تمثيلاً، وكان يصاحب ذلك شعور بالكآبة ينبع من صميم قلبي.. ولم يكن في استطاعتي أن ألوم قوانين الطبيعة، رغم أنها كانت تضايقني وتربكني طيلة حياتي وأكثر من أي شيء آخر. وكم أكره أن أتذكر ذلك، غير أنه كان كريهاً حتى في ذلك الوقت، وكنت أعرف بعد لحظة أو لحظتين من شعوري بذلك أنه لم يكن غير كذبة، وخدعة كبيرة، وادعاء مصطنع، كما أن ذلك الشعور بالجرم، وذلك الانفعال، وتلك الرغبة في الإصلاح، لم تكن كلها غير كذبة أيضاً.

قد تسألون: لماذا تشغل نفسك بهذه الأمور البالية؟

الجواب واضح، إذ أنه كان من الصعب عليّ أن أجلس مكتوف اليدين، ولهذا فقد حاولت أن أحطم قيودي، ولكم أن تصدقوا هذا. ولو نظرتم إلى أنفسكم أيها السادة لعرفتم ما أعني، ولتبيّن لكم صدقه. لقد خلقت لنفسي بعض المغامرات، واصطنعت حياة ما، لأنني كنت أريد أن أعيش بأية طريقة. وكم كنت أتضايق وأنزعج بدون سبب يدعو إلى ذلك، وكنت أصطنع ذلك اصطناعاً، عالماً بأن لا وجود لذلك الضيق في الواقع، وبأنني أخلقه لنفسي خلقاً. وكنت طيلة حياتي أجد في أعماقي دافعاً يدفعني إلى التظاهر بهذه الأكاذيب وقد بلغ بي ذلك أنني لم أعد أستطيع أن أتغلب على هذا الدافع في نفسي. وقد حاولت مرة، بل مرتين في الحقيقة، أن أحب. وأؤكد لكم أيها السادة أنني عانيت الكثير، ولم أكن في أعماق قلبي أؤمن بعذابي ذلك، وإنما كنت أسخر منه سخرية ضعيفة، بيد أنني كنت أعاني بالفعل، وكنت أتعذب عذاباً حقيقياً، وكنت أغار... إلا أن ذلك كله كان بدافع من ضجري ومللي، وكانت الاستمرارية المملة قد سحقتني وتغلبت عليّ. وأنتم تعرفون أن الثمرة المباشرة المتوقعة من الإدراك هي الاستمرارية، أي جلوس المرء مكتوف اليدين، وإدراكه هذا إدراكاً تاماً. وكنت أشرت إلى هذا في موضع سابق، وها أنا أكرر، أكرر مؤكداً:

أن كل الناس العمليين المباشرين يبدون نشاطاتهم وفعالياتهم لسبب بسيط، هو أنهم حمقى محدودون. تسألونني أن أشرح لكم هذا؟

حسناً، سأخبركم بذلك: إنهم كنتيجة لمحدوديتهم يتعلقون بالأسباب المباشرة والثانوية بدلاً من الأسباب الرئيسية، وهكذا يستطيعون أن يقنعوا أنفسهم بأسرع وأسهل مما يفعل الآخرون، ويكون في إمكانهم أن يجدوا أساساً قوياً لفعالياتهم، الأمر الذي يريح أذهانهم. وأنتم تعرفون أن راحة البال هي أشد الأمور أهمية.

فإذا أراد المرء أن يمثل، فإن ذهنه يجب أن يكون مرتاحاً خالياً من أي شك ولكن كيف يمكنني أن أريح ذهني؟ وأين هي الأسباب الرئيسية التي يجب عليّ أن أتخذها أساساً؟ وأين هي أسسي؟ ومن أين أستطيع أن أحصل على هذه الأسس؟ إنني أمرن نفسي على التأمل، فأجد أن كل سبب رئيسي أحصل عليه يستتبع سبباً رئيسياً آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية له. وهذا هو جوهر كل إدراك أو تأمل. وقد يكون مرد ذلك إلى قوانين الطبيعة ثانية. فما هي نتيجة ذلك؟ ولكن ذلك لا يحتاج إلى سؤال، لأن النتيجة واحدة أيضاً. وأنتم تتذكرون أنني كنت أتحدث عن الانتقام، رغم أنني متأكد تماماً من أنكم لم تفهموا ما عنيت).

لقد قلت إن الإنسان ينتقم لنفسه لأنه يرى ذلك عدلاً، وهو لهذا يشعر بالراحة ويقوم بتنفيذ انتقامه بهدوء ونجاح، ما دام مقتنعاً بأنه إنما يفعل أمراً عادلاً شريفاً. بيد أنني لا أعتبر ذلك عدلاً، ولا أجد فيه فضيلة ما، وعليه فإذا حاولت أن أنتقم لنفسي فإن انتقامي هذا لن يكون إلا بدافع الحقد، وقد يتغلب الحقد على كل شي، على شكوكي مثلاً، وبهذا يكون بإمكاني أن أنجح في انتقامي لأن هذا الحقد يعوض عن السبب الأصلي، رغم أنه ليس سبباً أصلياً. ولكن ما العمل إذا كنت لا أملك هذا الحقد، حتى هذا الحقد؟ (أنتم تعرفون جيداً أنني بدأت بهذا الآن فقط)، وكنتيجة لهذه القوانين اللعينة التي تميز الإدراك فإن الغضب الذي أحس به يخضع في الحقيقة إلى التحليل الكيميائية، ولو نظرتم في الأمر جيداً لوجدتم الشيء يتطاير في الهواء، ولرأيتم أسبابكم تتبخر، ولتعذر عليكم اكتشاف المجرم، ثم لا يصبح الخطأ خطأ، وإنما يصير شبحاً أو شيئاً مثل وجع الأسنان الذي لا يمكن أن يلام عليه أحد، ولا يبقى أخيراً غير منفذ واحد، هو ذلك المنفذ

ذاته الذي لجأت إليه في الماضي، أي أن يضرب المرء بقبضتيه على الجدار بكل ما أوتي من قوة. وهكذا تتخلون عن الأمر وتشيرون بأيديكم يائسين، لأنكم لم تجدوا سبباً أصلياً. أما إذا تركتم أعنة أنفسكم لمشاعركم تقودكم كما تشاء هي لا كما تشاؤون، بدون أن تتأملوا في الأمر أو يكون لديكم سبب أصلي، وإذا تركتم الإدراك جانباً لبعض الوقت، وكرهتم أو أحببتم، أي لم ترضوا بالجلوس مكتوفي الأيدي فإنكم ستجدون غداً أو بعد غد أنكم تحتقرون أنفسكم لأنكم خدعتموها عامدين، أما النتيجة فهي فقاعة الصابون والاستمرارية.

آه أيها السادة، لو تعرفون أنني أعتبر نفسي رجلاً ذكياً، لسبب بسيط: هو أنني ظللت طيلة حياتي غير قادر على أن أبدأ أو أنهي شيئاً.

وإنني لأعترف لكم بأنني ثرثار أتحدث بما لا تفهمون، وقد أضايقكم بثرثرتي هذه، إلا أنني لا أؤذيكم بها، ولا أختلف عن غيري في ذلك. ما العمل يا ترى إذا كان همّ كل ذكي هو أن يثرثر وحسب، أي أن يصب الماء في غربال؟

* * *

6

ليت السب في أنني لم أفعل شيئاً ليته راجع إلى كسلي. يا للسموات! لو كان الأمر كذلك لكنت أحترم نفسي. كنت سأحترم نفسي لأنني سأكون قادراً على الأقل أن أكون كسولاً، كنت سأمتلك ميزة واحدة على الأقل، ميزة إيجابية إلى حدٍّ ما، يمكنني أن أصدق نفسي بها، فإذا سأل أحد: من أكون؟ قيل له: كسول! وكم يكون ممتعاً إن سمع المرء هذا يقال عنه! بل إن هذا سيعني تعريفاً إيجابياً بي، وسيعني أن هنالك شيئاً يمكن أن يقال عني «كسول» - إنه لقب على أي حال، وإنها لمهنة. لا تسخروا، فإنها لكذلك، ويمكنني بهذا اللقب أن أكون عضواً في أي نادٍ، لأن ذلك سيكون حقاً من حقوقي وسيكون في إمكاني أن أجد حرفة لنفسي، لأنني سأستمر على احترام نفسي هذه. لقد عرفت رجلاً كان يفخر طيلة حياته بأنه فهم (لافيت) كل الفهم، وكان هذا الرجل يعتبر ذلك ميزته الإيجابية، فلم يشك في نفسه، ومات ولم يكن ضميره هادئاً وإنما كان منتصراً، وكان محقاً في ذلك أيضاً. كان عليّ إذن أن أجد مهنة لنفسي وكان عليّ أن أكون كسولاً شرِهاً. كان عليّ أن لا أكون بسيطاً، بل إنساناً يتجاوب مع كل ما هو خير وجميل. كيف ترون هذا أيها السادة؟ وكثيراً ما توفرت لي رؤى هذه الأشياء، أما الآن، وأنا في الأربعين، فإن كل ما هو «خير وجميل» يشغل ذهني بإلحاح، بيد أن الأمر في الأربعين مختلف جداً، وكان عليّ أن أجد لنفسي نوعاً من

الفعالية حتى أكون قادراً على الاحتفاظ بصلتي بهذه الأمور، ولكي أكون أكثر دقة، أقول إنه كان عليّ أن أشرب نخب كل ما هو «خيِّر وجميل». كان عليّ أن أنتهز كل فرصة ممكنة لأذرف دمعة في كل كأس ثم أفرغها في جوفي نخب كل ما هو «خير وجميل». وكان عليّ أيضاً أن أجعل كل شيء خيراً وجميلاً، وأن أبحث فيما حولي من قذارة صافعة عن كل ما هو خير وجميل. وكان واجباً عليّ أن أذرف الدموع كإسفنجة الماء، وإذا كان الفنان يرسم لوحة جميلة فعليّ على الأقل أن أشرب نخب هذا الفنان الذي يرسم لوحة جميلة، لأنني أحب كل ما هو خير وجميل. وقد كتب مؤلف كتاباً اسمه «كما تشاء»، وعليّ أنا أيضاً أن أشرب نخب كل من تشاء لأنني أحب كل ما هو خير وجميل.

ويحق لي أن أتمتع بالاحترام إذا فعلت هذا، ويحق لي أن أحمل على كل من لا يبدي نحوي هذا الاحترام. ويحق لي أن أعيش مرتاحاً وأن أموت كريماً، وتلك أمور أخاذة فاتنة جداً، وسيكون لي كرش مدور بديع وأنف أحمر شامخ، فإذا رآني أحد قال على الفور: هذا إنسان له قيمته، هذا إنسان حقيقي وطيد! لكم أن تقولوا ما تشاؤون أيها السادة، فإنه ليسرني أن أسمعكم تقولون شيئاً عني في هذا العصر السلبي.

* * *

7

ولكن هذه كلها أحلام ذهبية. بالله عليكم ألا أخبرتموني من هو الذي أعلن بأن الإنسان لا يفعل الأمور الكريهة إلا لأنه لا يعرف مصالحه الخاصة، وأنه ما أن يفهم ويفتح عينيه على مصالحه الطبيعية الحقيقية، حتى يكف عن فعل الأشياء الكريهة، ويصير صالحاً نبيلاً، لأنه إذا فتح عينيه، وعرف مصالحه الحقيقية، فإنه سيجد أن مصالحه هذه لا تتحقق إلا فيما هو خير فقط، ونحن نعرف أنه لا يوجد ذلك الإنسان الذي يعمل ضد مصالح نفسه مدركاً، وعليه وبالضرورة لا ترونه يفعل إلا الخير. آه، يا للطفل! آه، يا للطفل النقي البريء! ترى أهنالك في كل هذه الآلاف من السنين التي مضت إنسان كانت دوافعه الوحيدة إلى العمل مصالحه الخاصة؟ وكيف سنبرر ملايين الحقائق التي تشهد بأن البشر تركوا مصالحهم جانباً مدركين ذلك جيداً أي أنهم كانوا مدركين لمصالحهم الحقيقية، واندفعوا إلى طريق آخر، وواجهوا المخاطر ولم يكن ليرغمهم على ذلك شيء أو أحد إطلاقاً، وإنما لعلهم كانوا يكرهون أن يتبعوا الطرق التي اتبعها غيرهم من قبل، وهكذا راحوا يشقون بعناد وعزم طرقاً أخرى أصعب وأشد تفاهة باحثين عنها حتى في الظلام. وهكذا فإنني أظن أن هذا العناد وهذا الخروج على المألوف كانا أشد متاعاً لهم من أية مصلحة شخصية.. مصلحة! مصلحة! ترى ما هي المصلحة؟ وهل تستطيعون أن تأخذوا على عواتقكم إيجاد

تعريف دقيق لما تتألف منه مصالح الإنسان؟ وماذا لو حدث أحياناً أن مصلحة الإنسان يجب، وليس لعل، أن تتألف من رغبته في بعض الأحوال فيما يضر نفسه وليس فيما يفيدها؟ وإذا كان الأمر كذلك، ولو وجدت مثل هذه الحالة فإن تلك القاعدة تتحول إلى تراب.

ترى أتظنون أن هنالك مثل هذه الحالات؟ إنكم تضحكون، فاضحكوا ما شئتم أيها السادة، ولكن أجيبوني فقط: أيمكن للإنسان أن يتأكد من مصالحه بصورة كاملة؟ أليس هنالك من هذه المصالح ما لم يكن متضمناً أو ما لا يمكن أن يتضمنه أي تصنيف؟ إنكم ترون أيها السادة أنكم بالقدر الذي أعرفه عنكم، قد حصلتم على كل ما تعرفونه عن المصالح الإنسانية من معدلات الأرقام الإحصائية، والأسس الاقتصادية السياسية. وهكذا فإن مصالحكم هي الرفاه والثروة والحرية والسلام، كذا، كذا. وعليه فإن الإنسان الذي يعارض علناً وهو مدرك لما يفعله كل ما في هذه القائمة يكون في نظركم وفي نظري أيضاً إنساناً شاذاً مجنوناً جنوناً مطبقاً.. أليس كذلك؟ ولكنكم تعرفون أن هذا هو المدهش في الأمر، إذ كيف يحدث أن هؤلاء الإحصائيين والحكماء وعشاق الإنسانية ينسون مصلحة واحدة من المصالح الإنسانية حين يعدونها؟ بل إنهم لا يذكرونها في تقديراتهم كما يجب أن تذكر، في حين أن كل تقديراتهم تعتمد عليها. ولن يكون الأمر مهماً إلى هذه الدرجة لو أنهم أضافوا هذه المصلحة إلى قائمتهم ولكن المشكلة هي أن هذه المصلحة الغريبة لا تدخل ضمن أي تصنيف ولا يمكن أن تُدرج في أية قائمة.

لي صديق مثلاً... آه! ولكنه صديقكم أيضاً أيها السادة، بل لا يوجد أحد ليس هو بصديقه! وحين يعد هذا الرجل العدة لأي شيء فإنه يوضح

لكم في الحال ببراعة ودقة كيف يجب عليه أن يتصرف طبقاً لقوانين العقل والحقيقة. بل إنه ليتحدث إليكم في حماسة وانفعال عن مصالح الإنسان الحقيقية الطبيعية، ويتهكم على أولئك الحمقى الذين لا يعرفون مصالحهم الخاصة والذين لا يعرفون المدلول الحقيقي للفضيلة، ولا يمر ربع ساعة على ذلك حتى ترونه يقوم، دون أن يؤثر عليه مؤثر خارجي، وإنما من لدن نفسه وبدافع داخلي هو أقوى من كل مصالحه، يقول بتغيير اتجاهه - أي أنه يتصرف بعكس ما كان قد قاله لكم عن نفسه، ويخالف قوانين العقل، ويخالف مصالحه الخاصة، بل إنه ليخالف كل شيء... وإنني لأحذركم من أن صديقي هذا يتميز بشخصية مزدوجة، ولهذا فمن الصعب إلقاء اللوم عليه باعتباره فرداً. والحقيقة أيها السادة فإنه ليلوح لي أنه لا بد من وجود شيء هو أغلى عند كل إنسان من مصالحه الخاصة، أو (لكي لا نبتعد عن المنطق) إن هنالك مصالح هي أشد فائدة من المصالح الأخرى (وهي المصلحة المحذوفة من القائمة والتي تحدثنا عنها الآن فقط) مصلحة هي أهم وأشد نفعاً من جميع المصالح الأخرى، يجد الإنسان نفسه مستعداً عند الضرورة للعمل من أجلها ضد جميع القوانين أي ضد العقل والشرف والرفاه - أو في الواقع ضد كل تلك الأشياء الممتازة النافعة، وكل ذلك من أجل أن يحصل على المصلحة الأساسية التي تزيد منافعها على منافع الأخيرات والتي تعتبر أعز عليه منها جميعاً. وهنا قد تقولون: أجل، ولكنها مصلحة أيضاً على كل حال. ولكن اعذروني فإنني سأوضح الأمر أكثر ولا أقصد بهذا مجرد لعب بالكلمات. إن المهم هو أن هذه المصلحة تستحق الاهتمام لمجرد أنها تختلف عن كل تصانيفنا وتحطم كل نظام يقيمه عشاق الجنس البشري من أجل الجنس البشري. بل إنها تقلب كل شيء رأساً على عقب. ولكن قبل أن أذكر هذه المصلحة لكم أود أن أوضح موقفي

الشخصي، وعليه فإنني أعلن بجرأة أن كل هذه النظم البديعة وكل هذه النظيرات التي تشرح للجنس البشري مصالحه الطبيعية الحقيقية، لكي يقوم البشر بها لا محيص عنه من اقتفاء لهذه المصالح لكي يصبحوا طيبين شرفاء - كل هذه الأمور هي في نظري ليست غير أشياء منطقية! أجل أشياء منطقية، كما أن إثبات النظرية القائلة بأن بقاء الجنس البشري يعتمد على اتباع البشر لما يحقق مصالحهم هو في نظري لا يختلف عن تأكيد «بوكل» على أن البشر يصبحون، كلما أوغلوا في الحضارة، أشد نعومة، وهكذا يصبحون أقل تعطشاً للدماء وأقل استعداداً للحرب. إذ إن هذا ما يلوح متفقاً من الناحية المنطقية مع بحثه. بيد أن الإنسان يميل إلى النظم والنتائج المنطقية إلى درجة أنه مستعد حتى لتشويه الحقائق عمداً ولإنكار ما تشعر به حواسه من أجل تبرير منطقه، وسآخذ هذا المثال لأنه يوضح الأمر أبلغ توضيح.

انظروا فقط إلى كل ما حولكم: الدم يتدفق في جداول، وبكيفية تدل على منتهى المرح والجذل فكأنه شمبانيا. خذوا مثلاً القرن التاسع عشر كله، الذي عاش فيه «بوكل»، وخذوا نابليون العظيم ونابليون الحاضر أيضاً. خذوا شمال أمريكا -الاتحاد الخالد- خذوا مهزلة شليزفيك هولشتاين... فما هو هذا الذي تزيده الحضارة نعومة فينا؟

إن كل ما كسبه الإنسان من الحضارة هو مقدرة أشد على تحمل أنواع جديدة من المؤثرات الشديدة - ليس أكثر. وبتطور هذا التعدد فإن الإنسان قد يجد تلذذاً في سفك الدماء. بل إن هذا هو ما حدث له بالفعل. ترى هل لاحظتم أن أشد الناس حضارة هم أمهرهم في الذبح والسفك؟ بل إن أتيلا وستينكا رازن ورفاقهما لا يعتبرون شيئاً إلى جانبه، فإذا لم يكن هؤلاء بالعظمة التي كان بها أتيلا وغيره فذلك لأنهم مألوفون بالنسبة إلينا، نراهم

ونقابلهم في كل يوم. وعلى أية حال فإذا لم تجعل الحضارة من الإنسان أشد تعطشاً إلى الدماء فإنها على الأقل جعلت تعطشه للدماء أشد شراً وأكثر قذارة. فقد كان الإنسان في الماضي يرى سفك الدماء عدلاً، وكان يقتل من يظنهم يستحقون وهو مرتاح الضمير.

أما الآن، ففي الوقت الذي نعتقد فيه بأن سفك الدماء أمر مكروه فإننا نشترك في هذا الأمر المكروه، وباندفاع أكثر من ذي قبل. فأي الوضعين هو الأسوأ؟ لكم أن تقرروا ذلك بأنفسكم.

يقولون إن كليوباترا (واسمحوا لي بأن أضرب مثلاً من التاريخ الروماني) كانت مولعة بغرس الدبابيس الذهبية في أثداء وصيفاتها، وكانت تتلذذ وتستمتع بصرخاتهن وبعذابهن. قد تقولون إن ذلك حدث في العهود التي تعتبر بربرية بالنسبة لعهدنا، وقد تقولون بأن عهدنا بربري أيضاً، لأن الدبابيس ما تزال تغرس حتى اليوم، وأنه رغم أن الإنسان تعلم أن يرى الأمور بوضوح أشد مما كان يراها به في العصور البربرية، فإنه ما يزال غير قادر على التصرف وفق ما يمليه عليه العقل والعلم، إلا أنكم مقتنعون تماماً بأنه سيتعلم ذلك حين يتخلص من بعض العادات السيئة، حين يكون الإدراك والعلم قد أعادوا تطور النفس البشرية، وحولاها نحو الاتجاه الطبيعي - وأنتم مقتنعون أيضاً بأن الإنسان سيكف حينذاك عن الخطأ المتعمد، وبأنه سيكون مضطراً إلى أن لا يفرض إرادته ضد مصالحه الطبيعية، ثم تقولون إن ذلك ليس كل ما في الأمر، فالعلم نفسه (رغم أنني أعتقد بأن العلم ترف زائد عن الحاجة) سيعلم الإنسان أنه لم يكن يملك وهماً أو إرادة خاصين به، وأنه هو نفسه يشبه في طبيعته مفتاح البيانو أو الأرغن، وأن هنالك، بالإضافة إلى ذلك، أشياء تسمى قوانين الطبيعة، ولهذا فإن كل

شيء يفعله لا يتم بإرادته وإنما يتم بنفسه، وفقاً لقوانين الطبيعة. وعليه فما علينا إلا أن نكتشف قوانين الطبيعة هذه فلا يكون هنالك موجب بعد هذا لأن يكون الإنسان مسؤولاً عن أعماله، وسوف تصبح الحياة سهلة جداً بالنسبة إليه. وسيكون في الإمكان تصنيف الأعمال التي يقوم بها الإنسان بالطبع طبقاً لهذه القوانين، تلك الأعمال التي لو قارناها بالرياضيات لصارت كجداول اللوغاريتمات التي تبلغ حد 108000 والتي يمكن درجها في قائمة ما. بل هناك ما هو أفضل، إذ ستطبع كتب تثقيفية تشبه مجلدات دوائر المعارف (الإنسايكلوبيديات)، وسيدرج في هذه المجلدات كل شيء ويفصل بوضوح بحيث لن تكون هنالك حوادث أو مغامرات أخرى في العالم.

وهكذا -وهذا هو كل ما تقولونه- سيتم تأسيس علاقات اقتصادية جديدة، وستكون جاهزة ومضبوطة ضبطاً حسابياً دقيقاً، وستتلاشى أية معضلة محتملة فوراً، وذلك ببساطة: لأن كل جواب محتمل عنها سيكون معدّاً. وبذلك يتم بناء «قصر البلور». وستكون الأيام هادئة. ولكن ليس هنالك ضمان يشير إلى أن ذلك (وهذا هو تعليقي) لن يكون مملاً إلى حد الرعب (إذ ماذا سيفعل المرء إذا كان كل شيء معدّاً ومحسوباً من قبل؟)، بيد أن كل شيء مع ذلك سيكون معقولاً بصورة غير مألوفة. وقد يقودك الملل إلى أن تفعل أي شيء طبعاً، فإن الملل مثلاً هو الذي يدفع المرء إلى أن يغرز الدبابيس الذهبية في أجساد الناس، ولكن ذلك كله ليس مهماً، أما السيئ في الأمر (وهذا هو تعليقي أيضاً) فهو، وأجرؤ على أن أقول، إن الناس سيشكرونك على تلك الدبابيس، وأنت تعرف أن الإنسان أحمق، أو أنه ليس أحمقاً حقاً، وإنما هو ناكر للجميل إلى درجة أنك لن تجد له مثيلاً في الخليقة كلها. وأنا مثلاً لن يدهشني إذا تقدم رجل وسط كل مظاهر

الرخاء، وفجأة دون أن يكون له هدف معين، عقد ذراعيه ورسم على وجهه السخرية وكل ما يوحي بالضِّعة، وقال لنا جميعاً:

- أليس الأفضل أيها السادة أن نقذف بكل هذه المظاهر جانباً ونبعثر المعقول أدراج الرياح ونبعث بهذه اللوغاريتمات إلى الشيطان، ليكون في استطاعتنا أن نعيش ثانية بإرادتنا الحمقاء العذبة؟

ولن يهم ذلك أيضاً، ولكن المقلق في الأمر هو أن هذا الرجل سيجد له أتباعاً، لأن هذه هي طبيعة الإنسان، وكل ذلك من أجل أتفه الأسباب، بل إن السبب لا يستحق أن يذكره أحد لشدة تفاهته، وهو: أن الإنسان في أي مكان وفي أي زمان، وأياً كان، يفضل أن يتصرف باختياره، لا كما يلي عليه عقله أو مصلحته، وقد يختار المرء ما هو ضد مصالحه، فإنه أحياناً يجب أن يفعل ذلك بصورة إيجابية (وهذا هو ما أظنه)، وأفضل ما يختاره المرء من الأمور التي لا يردعه عنها رادع، وأفضل ما يتوهمه، بالغاً ما بلغ من العنف، أعلى ما تصله تصوراته التي تبلغ أحياناً حد الهستيريا، هو ذلك الشيء الذي يعتبر أعظم الفوائد فائدة والذي أغفلناه دائماً، والذي لا يمكن أن يخضع لتصنيف، والذي تتحطم أمامه كل النظم والنظريات وتصبح مجرد ذرات. ترى كيف يعلم هؤلاء الذين يدعون الحكمة بأن الإنسان يريد اختياراً طبيعياً فاضلاً؟ وما الذي يجعلهم يفهمون أن الإنسان يجب أن يريد اختياراً مفيداً فائدة معقولة؟ إن كل ما يريده الإنسان هو، ببساطة، الاختيار المستقل، مهما كلفه ذلك الاستقلال ومهما كانت نتائجه، والاختيار هو طبعاً.. الشيطان وحده يعرف ما هو الاختيار..

* * *

8

ولكنكم ستقولون ضاحكين:

«هه! هه! أنت لا تعرف أنه ليس هنالك اختيار في الواقع، ويمكنك أن تقول ما تشاء، بيد أن العلم قد أفلح في تحليل الإنسان، فصرنا نعرف أن الاختيار وما يدعى بحرية الإرادة لا يعدوان»...

أيها السادة، لقد أردت أن أقرر ذلك بنفسي وأعترف بأنني كنت مرتبكاً قليلاً، وكنت أبغي أن أقول إن الشيطان وحده يعرف على ماذا يتوقف الاختيار، ولعل ذلك كان أمراً ممتازاً جداً، بيد أنني تذكرت تعاليم العلم، فأمسكت نفسي، وها أنتم تثيرونها ثانية. والواقع أنه إذا اكتشفت يوماً قاعدة تنطبق على جميع رغباتنا وأوهامنا، أو إذا اكتشفت توضيح لما تعتمد عليه وللقوانين التي تتسبب في بعثها، وكيفية تطورها، وما تهدف إليه في حالة، وما تهدف إليه في حالة أخرى، وهكذا، أي قاعدة حسابية حقيقية، فإن من المحتمل أن الإنسان سيكف عن الرغبة وسيكون والحق يقال متأكداً أيضاً من موقفه. لأنه ليس هنالك من يريد أن يختار وفق القواعد. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يتحول من كائن بشري إلى مفتاح من مفاتيح الأرغن، أو إلى شيء يشبه ذلك. وما هو الإنسان بدون رغباته، بدون حرية إرادته، وبدون اختياره؟ أليس هو مفتاحاً في أرغن وحسب؟ ترى ماذا تعتقدون؟ دعونا ندرس المسألة، أيمكن أن يحدث مثل هذا أم لا؟

- هم م م.. إننا غالباً ما نخطئ في فهم فائدتنا فنحبها اختياراً، وقد نختار اللغو الفارغ في بعض الأحيان، لأننا نرى في ذلك اللغو الفارغ، ونحن على حماقتنا، أبسط الوسائل للحصول على فائدة مفترضة. أما إذا درسنا ذلك وفسرناه على الورق (الأمر الذي يمكن أن يتم بصورة كاملة، لأنه أمر لا معنى له ويبعث على الاحتقار أن يكون المرء غير قادر على فهم قانون من قوانين الطبيعة)، فلن يكون هنالك مجال لبقاء ما يسمى رغبة. لأنه إذا تعارضت الرغبة مع العمل، فإننا نفضل التعقل على الرغبة، لأنه من المستحيل علينا الاحتفاظ بعقولنا إذا كنا على استعداد للامعقولية في رغباتنا، وهكذا نعمل مدركين لما نفعل ضد العقل والرغبة لإيذاء أنفسنا، ولما كان الاختيار والتعقل يمكن أن يحصيا وأن يخمنا - لأنه سيتم في يوم ما اكتشاف ما يدعى بقوانين حرية الإرادة - فدعونا نسخر قليلاً، فإنه سيكون بالإمكان وضعها في قائمة معينة يوماً، لكي نختار وفقاً لتلك القائمة. ولو استطاعوا مثلاً أن يثبتوا لي يوماً أنني احتقرت أو سخرت من أحد لأنني لم أستطع إلا أن فعل ذلك، وأنه كان عليّ أن أفعل ذلك بطريقة ما، فأية حرية ستكون لي، خاصة إذا كنت مثقفاً أحمل شهادة من مكان ما؟

وهكذا سيكون في إمكاني أن أعرف كل ما سأفعله في حياتي لثلاثين سنة مقدماً. وباختصار، لو تم هذا فلن يترك لنا شيئاً نفعله، وعلينا أن نفهم هذا على أي حال. والحق أننا سنكون مضطرين إلى أن نعيد بيننا وبين أنفسنا وبدون ملل أنه في الوقت الفلاني وفي الظروف الفلانية لن تسألنا الطبيعة أن نأذن لها بشيء، وإنما علينا أن نقبلها كما هي دون أن يكون لنا أن نجعلها كما نشتهي، ولو كنا نطمح إلى القواعد والقوانين، بل حتى إذا كنا نطمح إلى أنبيق التقطير الكيميائي، وإلا فإنه سيكون مقبولاً أردنا أم أبينا...

أجل، ولكنني آتي هنا إلى وقفة، أيها السادة، يجب أن تسامحوني لأنني تفلسفت أكثر ما يجب، فإن ذلك هو نتيجة بقائي أربعين سنة في باطن الأرض! واسمحوا لي بأن أغرق في الخيال.

أنتم تعرفون أيها السادة أن العقل شيء ممتاز، وليس في ذلك من شك، ولكن العقل ليس أكثر من عقل، وهو لا يشبع إلا الناحية العقلية من طبيعة الإنسان، في حين أن الإرادة هي كشف عن الحياة كلها، أي الحياة الإنسانية كلها، بما فيها العقل وجميع الدوافع. وبالرغم من أن حياتنا، في هذا الكشف عنها، غالباً ما تكون تافهة، إلا أنها ما تزال حياة، وهي ليست في بساطة استخراج الجذور التربيعية، فأنا مثلاً أريد أن أعيش، ليكون في إمكاني إشباع كل إمكانياتي الحياتية، لا إمكانياتي العقلية وحسب، وإمكانيتي العقلية هي جزء من عشرين جزء من إمكانياتي الحياتية. ترى ماذا يعرف العقل؟ إن العقل لا يعرف سوى الأشياء التي أفلح في تعلمها (وقد لا يتعلم بعض الأشياء، ورغم أن هذا لا يرضينا، إلا أن علينا الاعتراف به)، أما الطبيعة الإنسانية فإنها تعمل ككل، وبكل ما في هذا الكل، بإدراك أو بلا إدراك، وهي، حتى إذا أخطأت، ما تزال تعيش. ولست أظن أيها السادة أنكم تتفقون معي، بل إنكم لتقولون لي ثانية إن الإنسان المتطهر المثقف، الذي سيكون عليه إنسان المستقبل مثلاً، لن يكون قادراً على أن يرغب رغبة مدركة في أي شيء ضد مصلحته، وتضيفون أن ذلك يمكن أن يستنتج حسابياً، إنني لمتفق معكم تماماً، فإن ذلك يمكن أن يتم - بالحساب، ولكني أكرر للمرة المائة أن هنالك حالة واحدة، واحدة فقط، يرغب فيها الإنسان رغبة مدركة عامدة فيما يضره، وفيما هو الحماقة بعينها - لأنه، ببساطة، يريد أن يمتلك الحق في أن يرغب لنفسه حتى حين

يكون من الحماقة جداً أن يرغب فيما هو معقول في حين أن ذلك غير مفروض عليه. وبالطبع قد يكون هذا الشيء السخيف، هذا الوهم الذي نتوهمه، أيها السادة، أكثر فائدة في الواقع من أي شيء آخر على هذه الأرض، خاصة في حالات معينة. بل إنه بصورة خاصة أكثر فائدة من أية فائدة أخرى حتى إذا كان يضرنا ضرراً واضحاً ويعارض كل التعارض مع أشد استنتاجاتنا صحة فيما يخص ما يفيدنا - لأنه، على كل حال، يضمن لنا ما هو أغلى وأهم - إنه يضمن لنا الشخصية أو الفردية، ويعتقد البعض، كما تعلمون، بأن هذا هو أغلى الأشياء بالنسبة للبشر، وقد يتفق الاختيار، إذا كان هنالك اختيار طبعاً، مع العقل، خاصة إن لم نسيء استعماله واحتفظنا به في حدوده. وهذا أمر مفيد وجدير بالثناء، ولكن غالباً، بل كثيراً ما يتعارض الاختيار تعارضاً تاماً مع العقل.. و... و.. أتعرفون أن هذا أيضاً مفيد وجدير بالثناء أحياناً؟ أيها السادة، دعونا نفترض أن الإنسان ليس بأحمق (ولا يستطيع أحد أن يرفض افتراض هذا، لأنه على الأقل سيتساءل: إذا كان الإنسان على حمق، فمن هو العاقل؟)، فإذا لم يكن على حمق فإنه جاحد ناكر للجميل بصورة بينة. والواقع أنني أعتقد بأن أفضل تعريف للإنسان هو: الجاحد الذي يسير على الاثنين! ولكن هذا هو ليس كل ما في الأمر، إذ إن هذا لا يمثل أسوأ ما فيه، لأن أسوأ نقيصة فيه تتمثل في انحرافه الخلقي الدائم، الدائم - من أيام الطوفان إلى فترة شليزفيك هولشتاين. ويستتبع كونه منحرفاً خلقياً حرمانه من التعقل، لأنه قد ثبت من زمن بعيد أن عدم التعقل ينجم من انحراف الخلق. ويمكنك أن تختبر ذلك وتطبق عليه تاريخ البشرية، فماذا سترى؟ أهو منظر عظيم؟ عظيم، إذا شئت. خذ مثلاً تمثال رودس، فهذا شيء له قيمته. إن السيد أنايفسكي يبدي أسباباً معقولة حين يقول إن البعض يقولون إنه من صنع يد الإنسان،

في حين يعتقد الآخرون بأن الطبيعة هي التي فعلت ذلك. وهل أن تاريخ البشرية متعدد الألوان؟ أجل، فقد يكون متعدد الألوان أيضاً إذا استعرض المرء في ذهنه ملابس الناس وأزياءهم العسكرية والمدنية في كافة القرون - وهذا وحده له قيمته، أما إذا أردت أن تستعرض أزياء العري فلن تصل إلى نهاية، ولن يكون في استطاعة أي مؤلف أن يحصر ذلك. وهل أن تاريخ البشرية رتيب؟ أجل، قد يكون رتيباً أيضاً، فهو حرب، وحرب، وهم يتحاربون الآن، وقد تحاربوا أولاً، وتحاربوا آخراً - بل إنك لتقرّ أنه رتيب أكثر مما يجب. وباختصار يستطيع المرء أن يقول أي شيء عن تاريخ البشرية، أي شيء يمكن أن يخطر ببال خيال مضطرب، أما الشيء الوحيد الذي لا يمكننا أن نطلقه على هذا التاريخ فهو أنه متعقل. إن هذه الكلمة لتلتصق بالحنجرة لا تبغي الانطلاق. والحق أن هذا هو الشيء الغريب الذي يحدث باستمرار. وهنالك دائماً أشخاص متخلفون عقلاء، وحكماء، وقوم من عشاق الإنسانية يهدفون إلى الحياة بأقوى أخلاقية وتعقل ممكنين ليكونوا نوراً لمن معهم وليروهم أنه في الإمكان العيش بتعقل وتخلق في هذا العالم، ومع هذا فإننا جميعاً نعرف أن هؤلاء الناس أنفسهم سريعاً ما يظهرون زائفين أمام أنفسهم مستخدمين واحدة من الخدع الشاذة، بل أشد الخدع ضعة. والآن أسألكم:

ماذا يمكن أن يتوقع من الإنسان ما دام يتمتع بصفات غريبة؟

رشوا عليه كل بركة أرضية، أغرقوه في بحر السعادة، بحر لا تظهر عليه إلا فقاقيع البركة، أعطوه أفضل رفاه اقتصادي، بحيث لن يكون عليه إلا أن ينام، ويأكل الكيك، ويشغل نفسه بالعمليات التي تبقي جسده في الأرض، وحينذاك، حتى حينذاك، سيقوم هذا الإنسان، مدفوعاً بالجحود

والحقد بتطبيق خدعة حقيرة عليكم. وسيجازف بالكيك، وسيرغب عامدا في أتفه الأشياء التي قد تؤدي إلى هلاكه وفي أحقر الأشياء الرخيصة، لا لشيء إلا ليدخل على هذه المعقولية الإيجابية عنصره الخيالي القاتل. لون لا يريد الاحتفاظ إلا بأحلامه المتوهمة وطيشه الأحمق التافه لأنه، ببساطة، يريد أن يثبت لنفسه - وكأنه ذلك ضروري جداً- أن البشر ما يزالون بشراً وليسوا مفاتيح أرغن تهددها قوانين الطبيعة بأنها ستسيطر عليها تماماً بحيث لن يكون في استطاعة أحد أن يرغب في شيء ما لم تكن رغبته هذه مذكورة في الجداول، وليس هذا هو كل ما في الأمر، حتى إذا كان الإنسان مفتاحاً في بيانو الفعل، وإذا أثبت العلم الطبيعي والرياضيات هذه الحقيقة، فإنه لن يكون متعقلاً، وإنما سيعمد إلى شيء مختلف، لا لسبب إلا لأنه جامد، ولأنه يريد أن يربح قضيته، وإذا لم يجد وسيلة إلى ذلك، فإنه يبتكر الدمار والفوضى وأنواع العذاب، وكل ذلك ليكسب قضيته! وسيلعن العالم. ولما كان الإنسان وحده قادراً على أن يلعن (فهذا هو ما يميزه عن بقية الحيوانات كامتياز وأساس أول)، فإنه سيصل إلى هدفه عن طريق اللعنة وحسب، أي أنه سيقنع نفسه بأنه إنسان وليس مفتاح بيانو! ولو كنتم تقولون إن هذا أيضاً يمكن أن يحصى ويدرج في الجداول - الفوضى والظلام واللعنات، بحيث إن مجرد إمكانية حصرها في جداول يمكن أن تمنعه عنها، فيتوفر للعقل أن يظهر نفسه مرة أخرى، فإن الإنسان سيجن عامداً لكي يتخلص من العقل ويكسب قضيته! وإنني لأؤمن بهذا وأعتبر نفسي مسؤولاً عن صحته، لأن كل أعمال الإنسان تتألف في الحقيقة من شيء واحد فقط هو إثباته لنفسه في كل لحظة أنه إنسان وليس مفتاح بيانو! ولما كان الأمر على هذه الصورة، فهل يستطيع المرء إلا أن يغتبط بأن الأمر لم ينته، وأن الرغبة ما تزال تعتد على ما لا نعرفه؟

ولكنكم ستصرخون في وجهي (إذا تنازلتم وفعلتم ذلك) قائلين: إنه ليس هناك من يمس حرية إرادتي بشيء، وأن إرادتي ستقوم بنفسها، وبحرية إرادتها، بالترابط بمصالحي الطبيعية، بقوانين الطبيعة، وبالرياضيات.

يا للسموات! أيها السادة: أي شكل من أشكال حرية الإرادة يبقى حين يؤول الأمر إلى التنسيق والحصر والرياضيات وحين لا يتعدى الأمر كون أن 2 + 2 = 4؟ أن 2 + 2 = 4 بدون إرادتي. أيعني ذلك حرية

* * *

9

إنني أسخر أيها السادة، وإنني لا أعرف أن سخريتي تافهة، ولكنكم تعرفون أن الإنسان لا يستطيع أن يكون بليغاً في كل الأمور، وربما كنت أنكت وحسب، بيد أنني، أيها السادة، معذب بالأسئلة، فهلا أجبتموني عنها؟ أنتم مثلاً تريدون أن تشفوا البشر من عاداتهم القديمة، وتصلحوا إراداتهم وفقاً للعمل والمعقول، ولكن كيف تعرفون، لا إن ذلك ممكن وحسب، وإنما إنه أمر مرغوب فيه أن تصلحوا الإنسان بهذه الطريقة؟ وما الذي يقودكم إلى استنتاج أن ميول الإنسان تحتاج إلى إصلاح؟ أو، باختصار، كيف تعرفون أن مثل هذا الإصلاح يفيد الإنسان؟ ولنتغلغل الآن إلى جذور الأمر، فيا ترى لماذا أجدكم مقتنعين بهذه الإيجابية بأن عدم تصرف الإنسان ضد مصالحه الطبيعية الحقيقة التي تضمنها استنتاجات العقل والرياضيات هو وبصورة دائمة وأكيدة مفيد للإنسان ويجب أن يكون قانوناً للبشر؟ إنكم تعرفون أن هذا هو مجرد افتراض من جانبكم، وقد يكون هذا قانوناً منطقياً ولكنه ليس قانون الإنسانية. وربما تظنون أيها السادة أنني مجنون، فاسمحوا لي بالدفاع عن نفسي. إنني أقر أن الإنسان حيوان خلاق بصورة فائقة، وأنه منصرف منذ البداية إلى الكفاح كفاحاً مدركاً من أجل هدف، وإلى القيام بأمور هندسية - قيامه مثلاً بلا انقطاع وأبداً بإنشاء طرق جديدة، مهما كان الاتجاه الذي يؤدي إليه. ولكن السبب

الذي يدعوه أحياناً إلى الخروج أو إلى أن يرغب في الخروج عن ذلك الطريق قد يكون راجعاً إلى كونه منصرفاً منذ البداية إلى إنشاء الطرق، وربما أيضاً إلى أنه مهما كان الإنسان العملي يتميز بالحق بأنه قد يعتقد أحيناً بأن الطريق غالباً ما يؤدي إلى مكان ما، وأن النهاية التي ينتهي إليها أقل أهمية من عملية إنشاء الطريق نفسه، وأن الأمر المهم هو صرف الطفل الموجه توجيهاً صالحاً عن احتقار الهندسة، وهكذا يؤدي به ذلك إلى الخمول القاتل الذي نعرف جميعاً أنه أبو الشرور كلها. إن الإنسان يميل إلى إنشاء الطرق والخلق والابتكار، وهذه حقيقة لا جدال فيها، ولكن لماذا يملك مثل هذا الميل والاندفاع الشديد إلى الدمار والفوضى أيضاً؟ هلا أجبتموني عن ذلك؟ بيد أنني أريد أن أقول بعض الأمور عن هذا بنفسي. أفلا يكون ذلك لأن الإنسان يحب الفوضى والدمار؟ (ولا جدال في أنه يحبهما أحياناً) لأنه يخشى خشية فطرية من حصوله على هدفه ومن إكماله للشيء الذي يقوم ببنائه ومن يعلم؟ فربما يحب الإنسان ذلك البناء إذا كان بعيداً عنه ولا يحبه إذا كان قريب التحقيق، وربما كان يريد أن يبنيه دون أن يكون راغباً في العيش فيه، وإنما يريد أن يتركه بعد الانتهاء منه لتعيش فيه الحيوانات الداجنة والأليفة، كالنمل والماشية إلى غير ذلك. بيد أن للنمل مزاجاً آخر، فلديه بناء عجيب من ذلك الطراز، ولكنه باقٍ أبداً.

لقد بدأ تاريخ النمل بالتل النملي، وربما سينتهي بالتل النملي أيضاً، الأمر الذي يضمن للنمل البقاء والمعقولية، أما الإنسان فهو مخلوق سخيف غير متماسك، وهو يشبه لاعب الشطرنج في أنه يميل إلى اللعب أكثر من ميله إلى النتيجة، دون أن يشعر بذلك، وربما (ولا يستطيع أحد أن يؤكد على) أن الهدف الوحيد الذي يسعى إليه البشر في هذه الأرض يكمن في

هذه العملية المستمرة من الحصول على الأشياء، أو بعبارة أخرى، في الحياة نفسها، لا في الأشياء التي يتم الحصول عليها، تلك الأشياء التي يجب دائماً أن يعبر عنها بقاعدة هي في إيجابية 2 + 2 = 4، ومثل هذه الإيجابية ليست حياة، أيها السادة، وإنما هي بداية الموت. وعلى أي حال، فقد كان الإنسان، وما يزال، يخشى من هذا التأكيد الحسابي، تماماً كما أخشاه أنا الآن، وإنني لأقرأ بأن الإنسان إنما يبحث عن هذا التأكيد الحسابي حين يعبر المحيطات ويضحي بحياته من أجل هذا البحث، إلا أنني أؤكد لكم أنه يخشى أن يجد ما يبحث عنه وأن ينجح فيما يفعله، لشعوره بأنه إذا وجده فلن يبقى هنالك شيء ليبحث عنه. وعندما ينتهي العُمّال من أعمالهم فإنهم يقبضون أجورهم على الأقل، ويذهبون إلى الحانة، ثم يساقون إلى مركز البوليس، وهنالك قد يجدون ما يشغلهم أسبوعاً. ولكن أينما ذهب الإنسان ففي الإمكان تمييز شيء من التراجع فيه حين يكون قد بلغ مثل هذه الأهداف. إنه يحب العمل من أجل تحقيق الأهداف، ولكنه لا يميل إلى أن يكون قد حقق هذه الأهداف. وهذا طبعاً أمر من السخف بمكان كبير. بل إن الإنسان في الواقع مخلوق مضحك، ويلوح أن في الأمر كله شيئاً من السخرية، ومع ذلك فإن ذلك التأكيد الحسابي أمر صعب على الإنسان أن يعانيه. إن مجرد التفكير في أن 2 + 2 = 4 هو أمر مهين جداً. إن 2 + 2 = 4 أمر يشبه شخصاً بذيئاً سليط اللسان يقف معقود الذراعين عقبة كأداء في طريقك، ويبصق وهو ينظر إليك. ورغم أنني أقر بأن 2 + 2 = 4 أمر ممتاز، فإننا إذا أردنا أن نعطي كل شيء حقه لقلنا إن 2 + 2 = 4 أمر ساحر جداً في بعض الأحيان.

ولماذا أجدكم مقتنعين اقتناعاً أكيداً جداً، فيه ما فيه من علامات الانتصار، بأن كل ما هو طبيعي وإيجابي فقط، وبعبارة أخرى، كل ما يؤدي

إلى فائدة فقط - هو لمصلحة الإنسان؟ ترى ألا يحب الإنسان شيئاً آخر بالإضافة إلى الأشياء التي تؤدي إلى خيره؟ ربما يكون مولعاً بالعذاب أيضاً؟ ربما يكون العذاب عظيماً، بالنسبة إليه كفائدة، عظمة الأشياء التي تؤدي إلى خيره؟ والحقيقة هي أن الإنسان ميّال إلى العذاب في بعض الأحيان ميلاً مندفعاً خارجاً على المألوف. ولا حاجة بي إللا اللجوء إلى التاريخ لإثبات ذلك، إذ يمكنكم أن تسألوا أنفسكم إن كنتم بشراً وإن كنتم قد عشتم بالمرة. أما بالنسبة لرأيي الخاص، فإن الاكتراث لما يؤدي إلى خير الإنسان فقط أمر لا أساس يسنده إسناداً إيجابياً. وأنه لمن الممتع أن يدمر الإنسان الأشياء في بعض الأحيان سواء كان ذلك خيراً أو شراً. ولست أميل إلى العذاب أو إلى ما يؤدي لخيري، وإنما أقف دفاعاً عن... وهمي، وعن كل ما يضمنه لي عند الحاجة، فالعذاب أمر لا وجود له في الفودفيل مثلاً، وهو أمر لا يمكن التفكير فيه البتة في «قصر البلور» مثلاً، لأن العذاب يعني الشك والنفي، فما هو الخير الذي يرجى من «قصر البلور» إذا حام حوله الشك؟ بيد أنني أعتقد بأن الإنسان لا ينبذ الشر الحقيقي، أي الدمار والفوضى. بل إن العذاب هو المصدر الوحيد للإدراك، رغم أنني قلت في البداية إن الإدراك هو أسوأ ما يتميز به الإنسان، ولكنني أعرف أن الإنسان يعلق عليه أهمية كبيرة ولا يريد أن يتخلى عنه مقابل أي إشباع، والإدراك أيضاً أرقى بصورة غير محدودة من 2 + 2 = 4، ولو بلغنا مرحلة التأكيد الحسابي فلن يكون هنالك مجال لعمل أو إدراك أي شيء. ولن يبقى لك إلا أن تخنق حواسك الخمس وتغوص في التأملات، أما إذا تشبثت بالإدراك فإنك رغم حصولك على النتيجة ذاته تستطيع أن تُقرّع نفسك أحياناً، وسيؤدي ذلك على أي حال إلى إنعاشك قليلاً، ورغم أن العقاب الجسدي يولّد رد فعل، إلا أنه أفضل من لا شيء.

10

أنتم تؤمنون بقصر من بلور لا يمكن تهديمه - قصر لا يمكن أن يسخر منه أحد أو يحقره أو يهزأ به، ولعل هذا هو الذي يفسر خوفي من هذا البناء، إذ إنه من البلور، ولا يمكن تهديمه، ولا يستطيع أحد أن ينكر وجوده أو يسخر منه.

وهكذا ترون أنه لو لم يكن قصراً، لو كان بيت دجاج مثلاً، فقد أزحف تحته لأتجنب البلل، ولكني مع ذلك لن أسميه قصراً كاعتراف مني بجميله لأنه حفظني من البلل. أنتم تضحكون وتقولون إنه في مثل هذه الظروف يتساوى بيت الدجاج بالمنزل الرفيع. أجل، إنني أوافقكم على هذا، إذا كان كل غرض الإنسان في الحياة هو أن يحمي نفسه من البلل.

ما العمل إذا كنت قد ملأت رأسي بفكرة أن ذلك هو ليس الهدف الوحيد من الحياة، وأنه إذا كان على المرء أن يعيش فالأفضل أن يعيش في منزل. وهذا هو اختياري، رغبتي. ولا يمكنكم أن تنفوها إلا إذا بدّلتم من طبيعة التفضيل عندي. حسناً، غيروها وأغروني بشيء آخر، وأعطوني مثلاً أعلى آخر، ولكنني لن أنظر إلى بيت دجاج كنظرتي إلى منزل. وقد يكون قصر البلور حلماً مثالياً، وقد يكون غير متفق مع قوانين الطبيعة، وقد أكون اخترعته لأنني أحمق، ولأن جيلي كله يحتفظ بعادات قديمة غير معقولة، ولكن ماذا يهمني إذا لم يكن معقولاً؟ إن ذلك لا يؤلف أي اختلاف ما دام

موجوداً في رغباتي أو موجوداً ما دامت رغباتي موجودة. ولعلكم تضحكون ثانية، فاضحكوا ما شئتم، لأنني قادر على احتمال سخريتكم أكثر من قدرتي على الادعاء بأنني شبع في حين أنني جائع. وأنا أعرف على أي حال أنني لن أتنازل عن شيء لأتفق مع صفر متكرر لا لشيء إلا لأن ذلك متفق مع قوانين الطبيعة أو لأنه موجود بالفعل. ولن أقبل تاجاً لرغباتي كلها صفاً من الأبنية التي تحتوي على شقق تؤجرها الحكمة للفقراء بعقود مجانية أمدها ألف عام، وربما كانت هنالك لوحة معلقة تشير إلى وجود طبيب أسنان أيضاً. دمروا رغباتي، وأنفقوا مُثُلي العليا، وأروني شيئاً أفضل وسترون كيف أتبعكم. وقد تقولون إن ذلك لا يستحق منك عناء، ولكنني أستطيع أن أعطيكم الجواب ذاته في هذه الحالة. إننا نبحث الأمور بجدية، فإذا لم تنتبهوا لي فإنني سأنكر معرفتكم وسأتراجع إلى الثقب الذي خرجت منه في باطن الأرض.

ولكن فيما أنا على قيد الحياة، وعندي ما عندي من الرغبات فإنني لأفضل أن تقطع يدي على أن أحمل حجراً واحداً إلى مثل ذلك البناء! ولا تذكّروني بأنني رفضت قصر البلور تواً لمجرد أن المرء لا يستطيع أن يسخر منه، إذ لم أقل لك لمجرد أنني مولع بالسخرية. وربما كان الشيء الذي كرهته هو أنه لم يكن بين كل أبنيتكم بناء واحد لا يمكن أن يسخر منه الإنسان. على العكس، إنني أفضل أن يقطع لساني اعترافاً بالجميل، فيما لو كان بالإمكان تنظيم الأشياء بحيث أفقد رغبتي في إخراج لساني على شيء ما. وليس خطأي ألا يكون تنظيم الأشياء ممكناً، كما أن المرء يجب أن يرضى عن الشقق المتشابهة. ولكن لماذا أحس بكل هذه الرغبات إذن؟ وهل يكون ممكناً ألا أكون مركباً إلا للوصول إلى استنتاج يقول بأن كل تركيبي هو خدعة؟ أيمكن أن يكون ذلك كل هدفي! لست أعتقد ذلك.

ولكن أتعرفون أنني مقتنع بأننا معشر المخلوقات التي تعيش في باطن الأرض يجب أن تقاد باللجام دائماً؟ إذ رغم أننا نقضي أربعين سنة في باطن الأرض دون أن نقول شيئاً، وما نكاد نخرج إلى ضوء النهار حتى نتحدث ونتحدث ونتحدث..

* * *

11

كل ما أعنيه من ذلك كله هو أن الأفضل أن لا يفعل المرء شيئاً! والأفضل هو البقاء في حالة الاستمرارية المدركة! وهكذا، فيا مرحباً بباطن الأرض. ورغم أنني قلت إنني أحسد الإنسان الطبيعي إلى آخر قطرة مما تفرزه كبدي من حقد، إلا أنني لا أكترث ولا أميل إلى أن أكون في مثل مكانه في الحال التي هو عليها الآن (رغم أنني لا أكف عن حسده) لا.. لا. وعلى أي حال فإن الحياة في باطن الأرض هي أكثر فائدة، فهنالك أستطيع.. آه، آه، بل إنني لأكذب حتى في هذا! إنني أكذب لأنني أعرف حق المعرفة أن الأفضل ليس البقاء في باطن الأرض، وإنما هو شيء مختلف، مختلف تماماً، وها أنا ظمآن إليه، بيد أنني لا أستطيع أن أجده! اللعنة على باطن الأرض! وسأخبركم بشيء يمكن أن يكون أفضل، هذا إذا كنت شخصياً أؤمن بما قلته بنفسي تواً. أقسم لكم أيها السادة أنه لا شيء هنالك، لا كلمة واحدة هنالك في كل ما كتبته الآن أؤمن بها. أو بعبارة أخرى، إنني أؤمن بكل ما كتبت، إلا أنني أشعر بأنني إنما أكذب كالرقاع الذي لا يعرف مهنته.

ولكنكم قد تسألون:

«لماذا كتبت هذا إذن؟ إن الأفضل هو وضعك أربعين سنة أخرى في باطن الأرض دون أن يكون لديك ما تفعله، ثم زيارتك في قبوك لنرى أية

مرحلة بلغت! ترى كيف يمكن ترك الإنسان أربعين سنة بدون أن يكون لديه ما يفعله؟».

وقد تقولون أيضاً وبشيء من الاحتقار:

«أليس هذا مخزياً باعثاً على الضعة؟ إنك تظمأ إلى الحياة وتحاول أن تحل مشاكل الحياة بتعقيدات المنطق، ولكم أنت على هذا، مواظب عليه، وكم أنت مهين بلواذعك وباندفاعك وفي الوقت نفسه كم أنت خائف! إنك تتحدث سخفاً، ولكن ذلك يهبك متعة، وأنت تقول أشياء مهينة، ثم تقلق بسببها وتعتذر عنها. وأنت تصرح أنك لا تخشى شيئاً، ولكنك في الوقت نفسه تحاول أن تحصل على رضائنا عنك. وأنت تقول إنك تصر على أسنانك حقداً، في حين أنك تحاول أن تنكت لتسلينا، وأنت تعرف جيداً أن نكاتك ليست بارعة، ونقاشك ليس قوياً، وإنما يلوح عليك أنك مقتنع بقيمته الحرفية وحسب. وقد تكون تعذبت بالفعل، بيد أنك لا تحترم عذابك. وقد تكون مخلصاً، ولكنك لست متواضعاً إذ إنك تهبط بإخلاصك إلى الحضيض وتجعله عادياً بسبب غرورك التافه. أنت تريد أن تقول شيئاً بلا شك، ولكنك تخفي الكلمة الأخيرة خائفاً، لأنك لا تملك أن تقرر التلفظ بها، وإنما تستطيع فقط أن تكون مهيناً بكل حين. أنت تدعي بالإدراك ولكنك لست واثقاً من أسمك وبالرغم من أن ذهنك يعمل، إلا أن قلبك مظلم فاسد، ولا تستطيع أن تملك إدراكاً كاملاً أصيلاً بدون أن يكون لقلب نقي. ولكم أنت متطفل، ولكم تلوح عابساً، مصراً! أكاذيب، أكاذيب، أكاذيب!».

لقد اخترعت كل الأشياء التي قلتموها بالطبع، وكان ذلك في باطن الأرض أيضاً. وقد ظللت طيلة أربعين عاماً أصغي إليكم من شق في

الأرض. لقد اخترعتها بنفسي، ولم يكن باستطاعتي أن أخترع شيئاً آخر. ولا عجب أن أكون حفظتها عن ظهر قلب، ولا عجب أن تتخذ شكلاً حرفياً.. ولكن أيمكن أن تكونوا مستعدين لتصديق كل شيء بحيث تعتقدون بأنني سأطبع هذا وأقدمه إليكم لتقرأوه؟ وهنالك مشكلة أخرى: إذاً لماذا أدعوكم السادة؟ ولماذا أخاطبكم وكأنكم قرائي فعلاً؟ إن الاعترافات التي أود أن أدلي بها لا يمكن لها أن تُطبع فضلاً عن أنها لا يمكن أن تقدّم إلى الناس ليقرأوها. وعلى كل حال فلست مصمماً على ذلك، ولست أجد ما يدعوني إلى ذلك. ولكنكم ترون أنه قد ساورتني فكرة ما، وأنني أود أن أحققها بأي ثمن.

دعوني أوضح لكم:

إن لكل إنسان ذكريات لا يريد أن يصرح بها للجميع وإنما لأصدقائه فقط، ولديه أيضاً أشياء أخرى يخشى الإنسان أن يخبر بها حتى نفسه. وكل إنسان خلوق يملك مثل هذه الأشياء، يخزنها في مكان عميق من ذهنه، وكلما ازداد الإنسان تخلفاً، زاد عدد هذه الأشياء في ذهنه. وعلى كل، فقد قررت مؤخراً فقط أن أتذكر بعض مغامراتي الأولى. وقد كنت حتى الآن أحاول أن أتجنبها بشيء من القلق، أما الآن، وقد قررت، لا أن أذكرها وحسب، وإنما أن أكتب تفصيلاً لها، فإنني أحاول أن أجرب إن كان الإنسان يستطيع، ولو مع نفسه، أن يكون صريحاً تماماً وأن لا يخشى من قول الحقيقة كاملة. وأود هنا أن ألاحظ أن هايني يقول إن التاريخ الشخصي الحقيقي يعد أمراً مستحيلاً، وأن الإنسان مجبول على الكذب حين يتحدث عن نفسه. وهو يعتقد بأن روسو قد كذب بصورة قاطعة في اعترافاته عن نفسه، بل إنه كذب عامداً، بدافع الغرور ليس إلا. إنني مقتنع بأن هايني هو على

حق، وإنني لأفهم تماماً كيف أن المرء يحاول أحياناً بدافع الغرور، وحسب، أن يسند إلى نفسه بعض الجرائم ويمكنني بالفعل أن أفهم سر هذا الغرور، ولكن هايني أصدر هذا الحكم على أولئك الذين يعترفون للجمهور، أما أنا فإنني أكتب لنفسي فقط، وإنني أود أن أصرح نهائياً بأنني إذا كنت أكتب وكأنني أخاطب القراء، فذلك يرجع إلى أن هذا الأسلوب أسهل عليّ من أي أسلوب آخر. ولا يعدو هذا أسلوباً - أسلوباً فارغاً، إذ لن يكون لي قراء. وقد سبق أن أوضحت هذا..

ولا يعجبني أن يقف أي مانع أو عقبة في طريق تسلسل أفكاري، ولن أنسى أي نظام أو طريقة، وإنما سأسجل الأشياء كما أتذكرها.

وهنا قد يتمهل أحدكم ويسألني: إن أنت لم تحسب للقراء حساباً، فلماذا تعترف بكل هذا؟ ولماذا تسجله على الورق؟ ولماذا تردد أنك لم تحاول اتباع أي نظام أو طريقة، وأنك ستسجل الأشياء كما تتذكرها، كذا، كذا،..؟ لماذا تحاول أن توضح هذا؟ ولماذا تعتذر؟حسناً سأجيب عن هذا:

هنالك دوافع نفسية وراء كل هذا، وربما يعود ذلك إلى أنني جبان، وربما أتخيل، عامداً، وجود جمهور ما، لكي أشعر بشيء من العظمة حين أكتب. هنالك طبعاً آلاف الأسباب. ولنعد ثانية، فما هو هدفي من الكتابة بالضبط؟ وإذا لم يكن ذلك لمصلحة الجمهور، فلماذا لا أتذكر هذه الحوادث في ذهني؛ بدون أن أسجلها على الورق؟

ذلك حق، إلا أنها ستكون أشد وقعاً إذا كانت مكتوبة، وسيكون في إمكاني أن أنتقد نفسي، وأن أحسن أسلوبي. وبالإضافة إلى ذلك فستنعشني الكتابة قليلاً، لأنني اليوم قلق جداً بشأن حادثة من حوادث الماضي حضرت في ذهني بكل وضوح منذ أيام، وظلّت مُستحوذة عليّ وكأنها نغمة مقلقة لا

يمكن الخلاص منها. بيد أنني يجب أن أتخلص منها بطريقة ما، ولدي مئات من هذه الذكريات، ولكن هذه الذكرى بالذات تبرز وحدها وتضايقني كثيراً. ولسبب من الأسباب أعتقد بأنني أستطيع أن أتخلص منها إذا سجلتها على الورق، فلماذا لا أحاول؟..

وبالإضافة إلى ذلك فإنني ضجر، وليس لدي ما أفعله، والكتابة نوع من أنواع العمل يجعل الإنسان طيب القلب أميناً. وهذه فرصة لي على أي حال.

إن الثلج يتساقط اليوم أصفر كئيباً. وقد سقط بالأمس أيضاً، وسقط منذ أيام كذلك. وأعتقد أن الثلج الندي هو الذي ذكرني بتلك الحادثة التي لا أستطيع أن أبعدها عن ذلك الآن.

وعليه فلنكرِّس هذه القصة للثلج المتساقط..

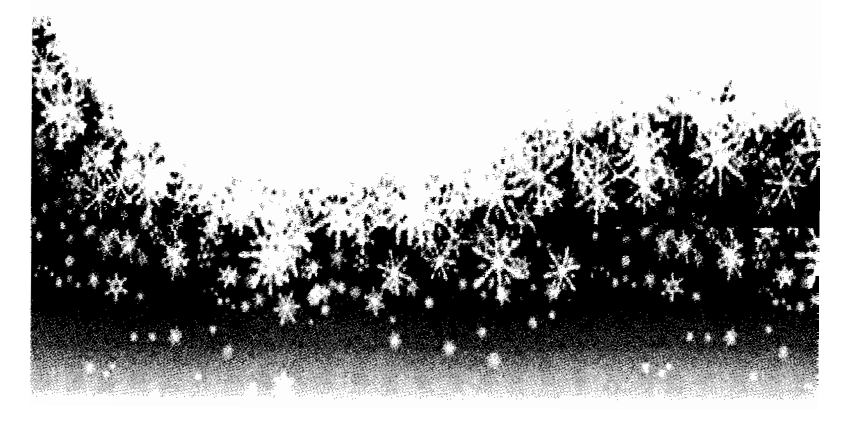
❋ ❋ ❋

الجزء الثاني

.. مهداة إلى الثلج الندي

حين أطلقت روحك المعذبة من ظلامها ..
بكلماتي الحارة المتدفقة باللوم والتعنيف، كنت
تصب اللعنات على الحياة التي عشتها والشرور
التي أحاطت بك ..
وقادك ضميرك أخيراً إلى الاعتراف بذكرياتك
السوداء فرويت لي قصة خطاياك الماضية ..
وكنت تستميحني العذر وتبكي خجلاً، يرتسم في وجهك الرعب .. وأسرعت تدفن وجهك
بين راحتيك.
وهطلت دموعك مدراراً، دون أن تشعر بها،
وطفقت ترتجف عاراً وخجلاً من انحطاطك ..
إلخ، إلخ

من قصيدة لـ : ن. أ. نكراسوف



1

كنت في ذلك الحين في الرابعة والعشرين، وكانت حياتي حتى في تلك الأيام كئيبة مشوشة وكنت وحيداً وحدة الوحش. ولم أكوِّن لي صداقات، وكنت أتعمد أن أتجنب الوحدة، واشتد في دفني لنفسي في الأعماق، شيئاً فشيئاً. ولم أكن أنظر إلى أحد في الساعات التي كنت أقضيها في مقر عملي، وكنت مدركاً إدراكاً تاماً أن زملائي لم يكونوا ينظرون إليّ باعتباري شاذاً وحسب، وإنما كانوا (وهذا ما كنت أتصوره دائماً) ينظرون إليّ باشمئزاز. وكنت أتساءل دائماً: لماذا لم يكن هنالك إلاي من يعتقد بأن الناس يشمئزون منه؟ بل لقد كان أحد الكتبة يرسم على وجهه أشد علامات الاشمئزاز والسخرية -فتلوح لي ملامحه فياضة بالنذالة- وأعتقد أنني لم أكن لأجرؤ على النظر إلى الناس بمثل نظراته البشعة. وكان كاتب آخر يرتدي بذلة قذرة، فما يقترب منه المرء إلا ويشم رائحة كريهة. بيد أنه لم يبد على هذين أنهما كانا يدركان ما كانت تثيره ملامح الأول وملابس الثاني أو شخصيتاهما من آثار سيئة، ولم يكن واحد منهما ليعتقد بأنه كان يثير الاشمئزاز، وحتى إذا كانا يعتقدان ذلك، فإنهما لم يكونا ليكترثا له ما دام الرؤساء لم يكترثوا له أيضاً. وإنني لمدرك الآن أنني كنت غير قانع بنفسي، وكانت هذه اللاقناعة تصل إلى حد الاشمئزاز بسبب غروري اللانهائي، والمستوى العالي الذي رسمته لنفسي، وهكذا صرت أشعر في صميمي بأن

الآخرين كانوا يشعرون نحوي بمثل شعوري نحو نفسي. لقد كرهت وجهي مثلاً، وكنت أعتقد أنه يبعث على الاشمئزاز، بل كنت أظن أنه كان هنالك شيء من الضعة في ملامحي، ولهذا فكنت كلما صعدت إلى مقر عملي أحاول أن أتصرف بما يوحي باستقلالي الذاتي وأن أضع على وجهي شيئاً من الترفع بقدر إمكاني، وكل هذا لكي لا أبدو تعساً حقيراً. وكنت أقول: قد يكون وجهي قبيحاً، فليكن رفيعاً معبّراً إذن، وفوق ذلك ليبد دالاً على الذكاء الحاد. ولكنني كنت متأكداً إلى درجة شديدة تبعث على الألم من أنه كان مستحيلاً على ملامحي أن تعكس هذه الصفات، والأسوأ هو أنني كنت أعتقد بأنني كنت ألوح غبياً، ولهذا فقد كنت أطمح إلى أن ألوح ذكياً وحسب. بل كنت أرحب حتى بأن أبدو وضيعاً من أجل أن أبدو ذكياً فقط.

لقد كرهت زملائي من الكتبة كرهاً شديداً طبعاً، وقد احتقرتهم جميعاً، إلا أنني كنت في الوقت نفسه أشعر بما يشبه الخوف منهم، بل كنت أعتقد أحياناً بأنهم كانوا أفضل مني وكنت أتقلب فجأة بين احتقارهم وبين النظر إليهم على أنهم أرفع مني. ولا يمكن أن يبدو الإنسان المثقف الرزين تافهاً ما لم يرسم لنفسه مستوى عالياً جداً، وما لم يكن يحتقر نفسه، بل يكرهها في بعض الأحيان. وسواء كنت أحتقرهم أو أعتبرهم أرفع مني، فإنني كنت أغض بصري كلما قابلت أحدهم، وكنت أجرب أحياناً أن أنظر في وجه أحدهم، ولكنني كنت دائماً أول من يغض بصره. وقد أقلقني هذا كثيراً. وكنت أخشى خشية شديدة أيضاً من ألوح مضحكاً، ولهذا كنت أحاول أن أتفق مع التقاليد المألوفة في مظهري الخارجي إلى حد العبودية، وكنت أحب أن أظهر كالآخرين تماماً. وكان يرعبني أن ألمس شيئاً من الشذوذ في نفسي. ولكن كيف كان يمكنني أن أتفق مع تلك التقاليد؟ لقد كنت شديد الحساسية تماماً كأي إنسان في مثل تلك السن، وكان الآخرون

جميعاً حمقى، وكان أحدهم يشبه الآخر إلى درجة أنهم كانوا كالماشية. ولعلي كنت الوحيد في تلك الدائرة الذي كان يتخيل نفسه عبداً جباناً، وكنت أتخيل ذلك لأنني كنت متطوراً أكثر منهم فقط. ولكن ذلك لم يكن تخيلاً وحسب وإنما كان واقعاً. لقد كنت عبداً جباناً، وإنني لأقر بذلك دون أن أشعر بأقل إحراج، لأن كل إنسان ممتاز في سننا يجب أن يكون عبداً جباناً، فذلك أمر طبيعي جداً، وإنني لمقتنع بذلك تمام الاقتناع.

إن الإنسان الممتاز مخلوق ومركب لينتهي إلى تلك النهاية، ولا يكون الإنسان الممتاز مرتبطاً بالجبن والعبودية في وقت في ظروف عرضية معينة، وإنما هو كذلك دائماً. وهذا هو القانون الطبيعي للناس الممتازين في جميع أنحاء الأرض. ولو حدث أن أبدى أحدهم بعض الشجاعة في أمر آخر. وهذه هي النتيجة الحتمية التي لا تتغير، لأن الحمير والبغال هي وحدها التي تتميز بالشجاعة، هي وحدها التي تفعل ذلك حتى تساق إلى الجدار، وهي لا تستحق أن يكترث لها أحد، لأنها في الواقع لا قيمة لها.

لقد أقلقني أمر آخر في تلك الأيام، وذلك هو أنه لم يكن هنالك أحد مثلي ولم أكن مثل أحد آخر قط، وكنت أعتقد دائماً بأنني كنت وحدي، بينما كانوا كل واحد.

ويتضح من ذلك أنني كنت لا أعدو صبياً. وكان يحدث العكس تماماً في بعض الأحيان. إذ قد أشمئز من الذهاب إلى الدائرة، وقد تصل الأمور حداً يجعلني أعود إلى البيت وأنا أشعر بالمرض، وفجأة، دون أن يكون هنالك دافع معين، كانت تمر بي فترة أكون فيها ساخراً غير مكترث (وقد كان كل شيء يحدث لي في فترات متقطعة)، وكنت أضحك من قلة صبري وعدم رضائي، وألوم نفسي على إغراقي في الخيال. وكنت أكره أن

أتحدث مع أي إنسان حيناً، أو أتحدث مع من كنت أحادثهم بين حين وآخر. وكان عدم رضائي يتلاشى فجأة بدون بسبب معقول، ومن يعلم، فربما لم أكن غير راض بالمرة، وربما كنت أتصنع ذلك وأقلد فيه ما كنت قرأته في الكتب. وعلى كل حال فإنني لم أبحث هذه النقطة حتى للآن. وقد عقدت مرة بعض الصداقات معهم، وزرت دورهم، ولعبت وشربت الفودكا وتحدثت عن الترقيات... ولكن دعني هنا أنتقل إلى أمر آخر.

نحن الروس، بصورة عامة، لم نتميز يوماً بما تميز به الرومانتيكيون الحمقى -الألمان، وأشد منهم الفرنسيون- الذين لا يؤثر عليهم شيء، فلو حدث زلزال، ولو دمرت الحرب الأهلية فرنسا، فإنهم لن يتغيروا، ولن تتوفر فيهم اللياقة والقابلية الكافيتان ليتغيروا، وإنما سيستمرون في الغناء حتى الموت، لأنهم حمقى. أم نحن، في روسيا، فليس فينا حمقى، وهذا أمر واضح تماماً، بل إن هذا هو ما يميزنا عن الأجانب، ولهذا فإن تلك الطبائع المتفوقة غير موجودة فينا بأشكالها النقية. والسبب في هذا يعود إلى «واقعيتنا» من الصحفيين والنقاد في ذلك الحين، الذين كانوا يبحثون دائما كوستانزو كلوز والعم بيوتر إيفانتش أبطال غوغول وكونتشاروف ويقبلونهما بحماقة على أنهما من مُثُلنا العليا، وقد نافقوا كثيراً ضد رومانتيكينا ظانين أنهم يشبهون أولئك الذين يعيشون في ألمانيا وفرنسا. بالعكس، فإن مميزات رومانتيكينا تتعارض مباشرة وبصورة مطلقة مع ذلك النوع الأوروبي المتفوق، ولا يمكن أن ينطبق عليه أي مقياس أوروبي المتفوق (واسمحوا لي بأن أستخدم كلمة رومانتيكي التي هي كلمة قديمة محترمة أدت خدمات جلية، كما أنها مألوفة للجميع).

إن ما يميز الرومانتيكي الروسي هو ميله إلى أن يفهم كل شيء وإلى أن يرى كل شيء، أن يراه بوضوح لا يراه به أشد واقعيتنا، وإلى أن يرفض

قبول أحد أو شيء، ويحتقر كل شيء ويستسلم ويتراجع أمام السياسة، ولا يضيع شيئاً عملياً مفيداً (كالشقق التي تهبها الحكومة مجاناً وعلى نفقتها الخاصة، والرواتب التقاعدية، ومظاهر الزينة العامة)، وأن يحتفظ باهتمامه بذلك الشيء العملي النافع حتى إذا كان يكتب مجلدات من الشعر الغنائي الحماسي، وأن يحافظ في الوقت نفسه على (ما هو خير وجميل) في نفسه ضد كل ما يشوهه حتى ساعة موته، وأن يحافظ على نفسه أيضاً وكأنه جوهرة غالية ملفوفة بقطعة من القماش من أجل «ما هو خير وجميل». إن رومانتيكينا هو إنسان شديد السعة، بل إنني لأؤكد لكم أنه أشد خبثائنا خبثاً.. أؤكد لكم على ذلك تأكيداً صادراً عن تجربة، بيد أنه يكون كذلك إذا كان ذكياً. ولكن! كيف أقول هذا! إن الرومانتيكي ذكي دائماً، وإنما أردت أن أقول إنه بالرغم من وجود بعض الرومانتيكيين الحمقى بيننا، إلا أنه لا يُحسب لهم حساب، كما أنهم لم يكونوا كذلك إلا لأنهم انحطوا في شبابهم إلى رومانتيكية الألمان، ولكي يحافظوا على جواهرهم العالية ويطمئنوا عليها فقد استقروا في مكان ما من ألمانيا - مفضلين فيمار أو الغابة السوداء.

أنا مثلاً كنت أحتقر عملي في الدائرة بيني وبين نفسي، ولكنني لم أكن أصرح بهذا الاحتقار لأنني، ببساطة، كنت أعمل فيها وأقبض راتباً وعلى أي حال فيمكنكم أن تفهموا جيداً أنني لم أكن أصرح باحتقاري لعملي. إن رومانتيكينا يفضل أن يجن على أن يضطر لاحتقار الأشياء علناً -رغم أن ذلك لا يحدث إلا نادراً- ما لم يكن واثقاً من أنه سيحصل على عمل آخر، ولهذا فإنه لا يُطرد من عمله، هو في أغلب الأحيان يساق إلى مستشفى باعتباره (ملك إسبانيا) فيما لو اختار الجنون. بيد أنه لا يجن في روسيا إلا النحاف الذين يهمهم الحق والعدل، وكثيراً ما يحصل عدد كبير من الرومانتيكيين في أواخر حياتهم على المناصب العالية. كما أن تميز كل واحد

منهم بشخصيات متعددة أمر مدهش، وكم هي عجيبة قابليتهم على التأثر بالمتناقضات!

كانت هذه الفكرة تبعث في نفسي الارتياح، وما أزال أجد فيها شيئاً من الراحة. بل إن هذا هو الذي يعلل وجود عدد كبير بيننا ممن يتميزون بالطبائع المتعددة، أولئك الذين لا يخسرون مُثُلهم العليا حتى إذا كانوا في أسفل دركات الانحطاط، وبالرغم من أنهم لا يفعلون شيئاً من أجل مثلهم العليا، الأولى ويتنحبون من أجلها دائماً، ويتميزون، ويا للغرابة، بشيء من الطيبة في قلوبهم. أجل، نحن الذين تجد بيننا أحط الأنذال، إلا أنهم في صميمهم شديدو الطيبة والأمانة، مع أن أحدهم لا يكف عن كونه نذلاً. وإنني لأكرر ثانية أن رومانتيكينا غالباً ما يصبحون أوغاداً (وإنني أستعمل كلمة «أوغاداً» تعبيراً عن ميلي إليهم) ويظهرون فجأة شيئاً من الواقعية والمعرفة العملية، بحيث إن أولئك المتفوقين عليهم والجمهور لا يملكون إلا أن يُبدوا أشد الدهشة والاستغراب من ذلك.

والحقيقة أن تعدد شخصياتهم أمر مدهش، والله وحده يعرف إلى أي حد سيصل بهم الأمر، أو ماذا يخبئ لنا المستقبل بعد هذا. وليست تلك صفة قليلة الشأن، ولست أقول هذا بدافع من وطنية حمقاء طائشة. إنني أشعر شعوراً أكيداً بأنكم تتصورون ثانية أنني أمزح، أو لعله العكس تماماً، إذ لعلكم مقتنعون بأنني أؤمن بهذا الفعل. وعلى أي حال فسأرحب بالفكرتين أيها السادة، وأعتبرهما شرفاً لي وفضلاً تسبغونه عليّ، واعذروني لخروجي عن الموضوع.

لم أحافظ على علاقاتي مع أصدقائي طبعاً، إذ سرعان ما اختلفت معهم، بل إنني تسرعت لقلة تجربتي وبسبب اندفاع الشباب، ولم أعد

أنحني لهم، وكأنني كنت قد قطعت كل علاقاتي معهم، وعلى كلٍّ فقد حدث هذا مرة واحدة، لأنني كنت وحيداً في أغلب الأحيان.

كنت أقضي معظم أوقاتي في البيت، وكنت أطالع كثيراً، وقد حاولت أن أخنق كل ما كان يعتمل في أعماقي عن طريق الانطباعات الخارجية، ولم أكن أملك من هذه الانطباعات الخارجية غير المطالعة، وقد ساعدتني القراءة كثيراً بالطبع، إذ إنها كانت تثيرني وتمنحني اللذة والألم. بيد أنني كنت أضجر منها في بعض الأحيان، فالمرء ميال إلى الحركة قبل كل شيء، وهكذا غصت في غمضة عين في شر من أحقر الشرور وأشدها ظلاماً وانحطاطاً. وكانت انفعالاتي الشقية شديدة الحدة، لأنني كنت سريع التأثر. وكانت تتملكني أحيانا دوافع هستيرية فتنبثق الدموع من عيني ويرتجف جسمي ارتجافاً. ولم يكن لدي مصدر غير القراءة، أعني أنه لم يكن في كل ما كان يحيط بي شيء يمكن أن يلفت نظري أو يحملني على احترامه. لقد غلبت عليّ الكآبة أيضاً، لأنني كنت أحس بدافع هستيري نحو كل ما هو غير متناسق، ونحو النقائص أيضاً. وهكذا استسلمت للشرور. ولم أقل هذا كله لأدافع عن نفسي... ولكن، كلا! إنني أكذب. لقد أردت أن أدافع عن نفسي، وقد أبديت هذه الملاحظة لمصلحتي الخاصة أيها السادة. أنا لا أريد أن أكذب لأنني قطعت على نفسي عهداً بأن لا أفعل ذلك.

وهكذا أغرقت نفسي في الشرور سراً، وبشيء من الخوف، وكان ذلك أثناء الليل، حين أكون وحدي. وكنت أشعر بالخجل، الخجل الذي لم يفارقني قط حتى في أبشع اللحظات، كان الخجل يدفعني حتى في تلك اللحظات إلى الانهيال باللعنات. وكان لي في ذلك الحين عالم منحط في روحي أيضاً، وكنت أخشى أن يراني أو يقابلني أو يعرفني أحد. وقد زرت كثيراً من الأماكن السرية.

وفي ذات ليلة، بينما كنت ماراً بإحدى الحانات رأيت خلال نافذة مضاءة بعض الرجال، وهم يتشاجرون ويضرب أحدهم الآخر بعصي البليارد، ثم قُذف بأحدهم خارج النافذة. ولو كان ذلك قد حدث في وقت آخر لأثار اشمئزازي الشديد، بيد أنني كنت في ذلك الحين في حالة جعلتني أحسد ذلك الرجل المقذوف خارج النافذة - كنت أحسده إلى درجة أني دخلت الحانة ونفذت إلى غرفة البليارد، وقلت لنفسي: لعلهم سيتشاجرون معي ويقذفون بي خارج النافذة أيضاً.

ولم أكن سكران -ولكن ماذا يمكن أن يفعل المرء- إذا كانت الكآبة تدفع الإنسان إلى أقصى درجات الهستيريا؟ ومع ذلك فلم يحدث شيء. ولاحَ لي أنني لم أكن لأستحق حتى ولا أن يقذف بي خارج النافذة، هكذا غادرت الحانة دون أن أحصل على الشجار الذي أشتهيه.

لقد أعطاني أحد الضباط القيمة التي استحقها منذ اللحظة الأولى.

كنت واقفاً بالقرب من منضدة البليارد، ولم أكن أدرك أنني كنت أسد الطريق، وأراد ذلك الضابط أن يمر، فأمسك بكتفي، ولم يقل كلمة واحدة -لم يحذرني ولم يوضح لي- وإنما دفعني بعيداً وسار في طريقه وكأنه لم يلحظ وجودي. كنت سأغتفر الضربات، بيد أنني لم أستطع أن أغتفر أن يمر بي أحد دون أن يحس بوجودي. الشيطان وحده يعرف كم كنت أشتهي معركة حقيقية - معركة لائقة، معركة أدبية! إذا جاز لي أن أقول ذلك. ولكنني عوملت وكأنني ذبابة. قد كان ذلك الضابط فارع الطول يرتفع ستة أقدام عن الأرض، في حين كنت قزماً حقيراً. بيد أن ذلك أتاح لي فرصة للعراك، إذ ما كان عليّ إلا أن أحتج فأجد نفسي مقذوفاً بي من النافذة. إلا أنني غيّرت رأيي وفضلت أن أنسحب كارهاً.

وخرجت من الحانة واتجهت نحو البيت مرتبكاً قلقاً. وفي الليلة التالية خرجت ثانية وأنا أضمر المقاصد الوضيعة ذاتها. وكنت أشعر بالتعاسة والشقاء أكثر من ذي قبل إلى حد أن الدمع كانت تتفجر من عيني- إلا أنني خرجت مع ذلك. لا تتصوروا أن جنبي هو الذي دفعني إلى ترك الضابط وشأنه، إذ لم أكن مرة جباناً في صميمي، رغم أنني كنت جباناً في تصرفاتي. ولا تتسرعوا ولا تضحكوا من هذا - أؤكد لكم أنني أستطيع أن أفسره لكم.

لو كان ذلك الضابط من النوع الذي يقبل أن يتبارز! ولكن لا، فقد كان واحداً من أولئك الذين قلّ وجودهم اليوم مع الأسف، والذين كانوا يفضلون أن يتشاجروا ويضرب أحدهم الآخر بعصي البلياردو، ويذهبون للشكوى في مراكز البوليس، كما فعل الملازم بيرو كوف بطل غوغول مثلاً. ولم يكونوا يتبارزون بل كانوا يعتبرون المبارزة مع مدني مثلي أمراً غير مشرف في كل الأحوال - وكانوا ينظرون إلى المبارزة وكأنها أمر مستحيل، أمر انحلالي فرنسي تماماً. وكانوا مستعدين دائماً للعربدة، خاصة إذا كانوا يزيدون على ستة أقدام طولاً.

أجل، لم أنسحب لأنني كنت جباناً! وإنما لأنني كنت شديد الغرور. ولم أكن خائفاً من طوله أو من ضرباته أو من أن يقذفني خارج النافذة، فقد كان لي من الشجاعة الجسدية ما يكفي لاحتمال ذلك، ولكن لم تكن لدي الشجاعة الأدبية. وكان ما أخافني هو أنهم كانوا هنالك جميعاً، من المسجل المترفع إلى أحقر كاتب عفن الرائحة قواد الملامح يرتدي ياقة قذرة، وكنت أعرف أنهم سيسخرون مني وسأفشل في إفهامهم لو احتججت وخاطبتهم باللغة الأدبية. والمعروف أن المواقف المشرفة -لا الشرف، وإنما المواقف

المشرفة- تتطلب أن يتحدث المرء بيننا باللغة الأدبية. ولا يمكنك أن تلمح إلى المواقف المشرفة باللغة العامية. وكنت متأكداً تماماً (بالمفهوم الواقعي، وبصرف النظر عن كل رومانتيكيتي) من أنهم سيغرقون في الضحك، وكنت أعرف أن الضابط لن يضربني، وحسب وإنما سيهينني ويطوي ظهري على ركبته ويرفسني حول منضدة البليارد، وقد تأخذه الشفقة بي بعد ذلك كله ويقذف بي خارج النافذة.

ولم تكن الحادثة البسيطة لتنتهي بالنسبة لي إلى ذلك الحد. كنت أقابل ذلك الضابط في الشارع وأراقبه بعناية. ولست أعرف إن كان قد عرفني، كلا. لا أعتقد ذلك، إذ لم يبد شيء في ملامحه على أنه قد عرفني. غير أنني كنت أحدق فيه بحقد وكره شديدين، واستمر ذلك... أعواماً!

وتضاعف كرهي له بمرور الأيام. وكنت في البداية أحاول أن أجمع بعض المعلومات عنه سراً. ولم يكن ذلك سهلاً بالنسبة لي، إذ لم أكن أعرف أحداً، بيد أنني سمعت أحدهم وهو ينادي اسمه عالياً في الشارع حين كنت أقتفي أثره وكأنني كنت مشدوداً إليه. وهكذا عرفت اسمه، واستطعت في مرة أخرى أن أتبعه إلى شقته، وأعطيت البواب عشرة كوبكات فأخبرني برقم شقته وبالطابق الذي يعيش فيه، وما إذا كان يعيش فيه وحده أو مع آخرين، والواقع أنني عرفت عنه كل ما كان باستطاعة البواب أن يخبرني به. وفي صباح أحد الأيام خطر ببالي أن أسخر من هذا الضابط في قصة أكتبها عنه لأفضح فيها نذالته رغم أنني لم أكن قد جربت الكتابة من قبل. وكتبت القصة وأنا أشعر بلذة غريبة، واستطعت أن أكشف فيها عن نذالته، بل إنني بالغت في كشفي عنها، وأجريت بعض التغيير في اسمه في البداية، بحيث إنه ظل يشبه اسمه إلى درجة كبيرة، بيد أنني غيرت الاسم نهائياً، ثم

أرسلت القصة إلى الأوتيتشيستفينيا زابسكي. غير أن مثل هذه التهجمات لم تكن تتمشى مع الذوق العام في تلك الأيام، وهكذا لم تُنشر قصتي، وقد ضايقني ذلك كثيراً.

كان الاستياء يخنقني خنقاً في بعض الأحيان: وأخيراً قررت أن أتحدى خصمي وأدعوه إلى مبارزة، فكتبت له رسالة رائعة خلابة ورجوته رجاءً حاراً أن يعتذر لي، ولمّحت تلميحاً بعيداً إلى المبارزة في حالة الرفض. وقد كانت رسالتي رقيقة إلى درجة أنه لو كان ذلك الضابط يتمتع بأقل إدراك للخير والجمال لعانقني في الحال ولعرض عليّ صداقته. وكم كان ذلك سيكون رائعاً! وكم سيكون بوسعنا أن نقضي الأوقات معاً! وقلت لنفسي: سيحميني برتبته العالية. في حين أنه كان باستطاعتي أن أرقى بذهنه وأصل به إلى مستوى ثقافتي، وعند ذلك سيكون بإمكاني... أن أنفذ ما يدور في ذهني، وأن تحدث لي أشياء كثيرة. تصوروا فقط أن ذلك كان بعد عامين من إهانته لي، وكان ذلك التحدي الذي أردت أن أرسله إليه يلوح مضحكاً لأنه لم يكن موجهاً في الوقت المناسب، رغم أنني حاولت إخفاء الزمن ما استطعت، ولكن، الشكر لله (أشكر الله العلي القدير إلى هذا اليوم والدموع تترقرق في عيوني) لأنني لم أرسل الرسالة إليه. إن الرعشات الباردة لتسري في ظهري حين أفكر بما كان سيحدث لو أنني أرسلت الرسالة إليه.

إلا أنني انتقمت لنفسي بأبسط وسيلة، وكان ذلك بطريقة استنبطتها في لحظة من لحظات النبوغ! إذ برقت في ذهني فكرة رائعة. كنت في بعض أويقات العطلات أتمشى في الناحية المشمسة من النيفسكي حوالي سلسلة مما لا يحصى له من مشاعر الشقاء والضعة والاشمئزاز، بيد أن ذلك كان ما

أردته بلا شك. كنت معتاداً أن أتلوى في طريقي بأسلوب شاذ وكأنني كنت ثعباناً من ثعابين الماء؛ وكنت أميل يميناً ويساراً لأفسح الطريق للجنرالات وضباط الحرس والفرسان أو السيدات، وكانت في تلك الأحوال تعتريني ارتعاشات في صميم خافقي، وكنت أغرق في الضعة والخجل كلما فكرت في حقارة ملابسي وتعاسة شكلي القزمي التافه.

وكان ذلك يلوح بالنسبة لي استشهاداً منتظماً دائماً، وضعة لا يحتملها ذهني كانت تتحول إلى إحساس مباشر مستمر بأنني لم أكن غير ذبابة في أعين الناس، ذبابة كريهة حقيرة - وبالرغم من أنني كنت أشد منهم ذكاءً وثقافة وأرق منهم شعوراً طبعاً- إلا أنني كنت ذبابة أفسح المجال للجميع دائماً، ذبابة يحتقرها ويهينها الجميع أبداً. ولكن لماذا كنت أسبب لنفسي كل ذلك العذاب، ولماذا كنت أذهب إلى النيفكي إذن؟ لم أكن أعرف، وإنما كنت أشعر بأن شيئاً خفياً كان يجذبني إلى هنالك في كل فرصة ممكنة.

كنت في تلك الأيام قد بدأت أجرب المتعة التي تحدثت عنها في الفصل الأول. وبعد حادثة الضابط بدأت أشعر بالانجذاب إلى النيفكي أكثر من ذي قبل: فقد كان شاعر النيفكي يتيح لي أن أراه دائماً، وكنت هنالك أشعر بالإعجاب به. كان هو أيضاً يذهب إلى النيفكي في أيام العطلات وكان هو أيضاً يتلوى كثعبان الماء، أما الناس من أمثالي، وحتى ممن كانت عليهم ملابس أفضل من ملابسي، فقد كان يسير غير مكترث لهم، وكان يتجه نحوهم مباشرة وكأنه لا يرى شيئاً أمامه، ولم يكن ليفسح الطريق لأحد منه. وظللت أغرق في استيائي وأنا أراقبه وكنت أفسح الطريق له دائماً وأنا كاره، وكان يدمرني جداً شعوري بأنني لم أكن على قدم المساواة معه حتى ولا في الشارع. وكنت أسأل نفسي دائماً بغضب هستيري: لماذا أكون دائماً أول من يفسح الطريق؟

وكنت أستيقظ في الثالثة صباحاً في بعض الأحيان لأسأل نفسي ذلك السؤال: ترى لماذا أكون أنا دائماً وليس هو؟ ليس هناك نظام أو قانون يقضي بذلك، فلماذا لا نفسح الطريق معاً فيتخلى هو عن نصف الطريق وأتخلى أنا عن النصف الآخر ونمر معاً باحترام متبادل؟

ولكن ذلك لم يحدث قط، وكنت دائماً أفسح له الطريق، في حين إنه لم يكن ليلاحظ أنني كنت أفسح له الطريق. وهنا برقت في ذهني فكرة لامعة! وقلت لنفسي: ماذا لو أقابله، فلا أحيد عن الطريق؟ ماذا لو أتعمد أن لا أفسح له المجال، حتى لو أدى ذلك إلى اصطدامي به! وسيطرت عليّ هذه الفكرة الجريئة وقضت على كل استقراري. وظللت أحلم بها دائماً وبطريقة مفزعة، وكنت أذهب إلى النيفكي عامداً، لأتصور ما سيكون عليه الموقف فيما لو قررت أن أفعل ذلك. وشعرت بالغبطة، ولاحَ لي ذلك عملياً وممكناً، وقلت لنفسي وأنا في حالة أكثر هدوءاً بسبب غبطتي: إنني لا أريد أن أدفعه بالضبط، وإنما أريد ببساطة أن لا أحيد عن طريقي وأن أتجه نحوه مباشرة، ولكن بدون عنف، وإنما بطريقة تجعلني أمر به كتفاً بكتف بقدر ما تسمح به الياقة. سأتجه نحوه بقدر اتجاهه نحوي. وأخيراً قررت أن أفعل ذلك نهائياً، ولكن استعدادي للأمر استغرق وقتاً طويلاً، فلكي أفعل ذلك كان عليّ أن أظهر بمظهر لائق، لهذا بدأت فكر بملابسي. فلو حدث شيء، كأن ينتهي الأمر بفضيحة وسط الناس (والجمهور هنالك من الطبقة العالية، فالكونتيسة تتمشى هنالك، والأمير د. يتمشى هنالك أيضاً، بالإضافة إلى كل طبقة الأدباء). كان عليّ إذن أن أظهر بمظهر لائق، لأن ذلك كان سيعث على احترامي، وكان سيضعنا في منزلة متساوية بنظر المجتمع.

وهكذا طلبت سلفة على راتبي واشتريت قفازاً وقبعة لائقة من محل جوركين، ولاحَ لي أن القفاز الأسود أفخم من الليموني الذي فكرت في

شرائه أولاً. وقلت لنفسي: إن هذا اللون مسرف أكثر مما يجب، ويلوح لنفسي: إن هذا اللون مسرف أكثر مما يجب، ويلوح صاحبه وكأنه يحاول أن يجتذب انتباه الناس. وهكذا عدلت عن شراء القفاز الليموني. وكنت قد اشتريت من قبل قميصاً ممتازاً مزوداً بقطعتين عظميتين بيضاويتين لتثبيت الياقة. أما سترتي فقد كانت الشيء الوحيد الذي كان يردعني عن المحاولة. كانت السترة نفسها جيدة، وكانت تدفئني، إلا أنها كانت تلوح محشوة، وكان عليّ أن أبدل الياقة بأي ثمن بياقة أخرى ناعمة تشبه ياقات الضباط.

ولهذا الغرض فقد بدأت أتردد على محل كوستيني دفور، وبعد محاولات عديدة استطعت أن أحصل على ياقة ألمانية رخيصة، وبالرغم من أن هذه الياقات الألمانية تفقد ألوانها بسرعة فتلوح عادية، إلا أنها تكون في البداية ممتازة جداً، وكنت أحتاج إليها لذلك الغرض فقط، ولكنني حين سألت عن السعر وجدته مرتفعاً جداً، وفكرت قليلاً، ثم قررت أن أبيع ياقة الفراء، وأن أستدين بقية المبلغ من أنطون أنطونوفيتش سيتوتشكين، رئيسي المباشر، وكان شخصاً متواضعاً رغم أنه كان عابساً متجهماً دائماً. ولم يكن ليقرض أحداً أي مبلغ من المال ولكنني كنت حين دخلت الخدمة قد حملت إليه توصية خاصة من شخص كبير المقام كان هو الذي حصل لي على الوظيفة. وقد أقلقتني فكرة الاستدانة منه، بل إن الاستدانة من أنطون أنطونوفيتش سيتوتشكن تعتبر أمراً مرعباً مخجلاً، ولم أستطع النوم ليلتين أو ثلاث ليال، والحقيقة أنني لم أكن أنام في تلك الأيام كثيراً. وكنت محموماً وكان قلبي يغوص في أعماقي في بعض الأحيان ويخفق بعنف، ويخفق، يخفق. ودهش أنطون أنطونوفيتش ثم قطب وجه وغاص في تأملاته، وأخيراً أقرضني المبلغ بعد أن أخذ مني تحويلاً مكتوباً بأن يقتطع من راتبي بعد أسبوعين المبلغ الذي كان أقرضني إياه.

وبهذا فقد كان كل شيء جاهزاً. وحلّت الياقة الأنيقة محل الفراء القديم، وبدأت أشعر بأن عليّ أن أستعد للمحاولة شيئاً فشيئاً، إذ لم يكن مناسباً أن أفعل ذلك عرضاً، وإنما كان عليّ أن أعترف بأني بدأت بعد محاولات عديدة أشعر باليأس، فلن يكن باستطاعتنا أن يصدم أحدنا الآخر. ولكنني مع ذلك أعددت كل شيء، وكنت مصمماً بصورة نهائية -ولاحَ لي أنه كان ممكناً أن يصدم أحدنا الآخر- وقبل أن أعرف ما أنا صانع، إذا بي أجد نفسي أفسح له المجال أيضاً، وهكذا مرّ دون أن يكترث بي. وكنت صليت لله سائلاً إياه أن يمنحني العزم والتصميم. بل إنني عقدت العزم في إحدى المرات بصورة نهائية، إلا أن الأمر انتهى بين متعثراً ساقطاً على قدميه، لأن شجاعتي خانتني في اللحظة الأخيرة، حين كنت على بُعد ست بوصات فقط عنه، وخطا فوقي بهدوء، في حين كنت أتدحرج إلى الناحية الأخرى كالكرة، ومرضت مرضاً شديداً في تلك الليلة أيضاً وأصبت بالحمى والهذيان. وأخيراً انتهى الأمر نهاية سارة، في الليلة التي قررت فيها أن أتخلى عن تلك الخطة الجهنمية وأن أهمل الأمر خرجت إلى شارع النيفكي للمرة الأخيرة، لأرى فقط كيف سأتخلى عن الأمر. وفجأة، ولم تكن هنالك إلا خطوات ثلاث بين خصمي وبيني، عقدت العزم بصورة غير متوقعة - أغلقت عيني فاصطدم كتفي بكتفه! ولم أُحِد بوصة واحدة عن طريقي، ومررت به بطريقة معادلة لطريقة مروره تماماً! ولم ينظر حوله، وتظاهر بأنه لم يلحظني، ولكنه كان يتظاهر وحسب، وإنني لمقتنع بذلك. حتى الآن. لقد تأذيت قليلاً بالطبع - فقد كان أقوى مني، ولكن ذلك لم يكن شيئاً مذكوراً. كان المهم هو أنني حصلت على ما كنت أريد، واحتفظت بعظمتي، ولم أستسلم خطوة واحدة، وإنما وضعت نفسي في منزلة واحدة معه وسط الناس. وعدت إلى البيت وأنا أشعر بأنني

انتقمت لنفسي انتقاماً كاملاً، وكنت مغتبطاً. كنت أشعر بالانتصار، وطفقت أغني بالإيطالية، ولن أصف لكم بالطبع ما حدث لي بعد ثلاثة أيام، إذ لو كنتم قرأتم القسم الأول لعرفتم ما حدث لي. وأخيراً نقل الضابط إلى منطقة أخرى ولم أره مدى أربعة عشر عاماً، فيا ترى ما الذي يصنعه هذا الزميل العزيز الآن؟ وفوق من يخطو في هذه الأيام؟

* * *

2

كانت كل فترة من هذه الفترات التي أقضيها موزع الذات تنتهي بمرضي. كانت تنتهي دائماً بلومي لنفسي - وقد حاولت أن أتخلص من ذلك اللوم لأنني كنت أشعر بالمرض، بيد أنني اعتدت ذلك تدريجياً. لقد اعتدت كل شيء، أو أنني استسلمت طائعاً لأتخلص من لوم نفسي، لأنه لم يكن في استطاعتي أن أفكر في كل ذلك، وكانت وسيلتي في الخلاص أن أحب أشياء - كانت تتمثل في لجوئي إلى «كل ما هو خير وجميل» في الأحلام طبعاً. وقد كنت حالماً إلى درجة كبيرة، إذ كنت أغرق في كل حلم ثلاثة أشهر، وأنطوي على نفسي في زاويتي، وقد لا تصدقونني إذا قلت إنني كنت في تلك الأحيان لا أشبه الرجل الذي دفعه قلقه وجبنه إلى أن أضع ياقة ألمانية على سترته. لقد أصبحت فجأة بطلاً. ولم أكن في تلك الأيام لأتذكر وجه ذلك الملازم الذي يبلغ طوله ستة أقدام، لم أكن لأتذكر وجهه حتى لو جاء لزيارتي شخصياً. لم يكن في وسعي أن أتذكر شيئاً من ملامحه. أما ما هي أحلامي وكيف كان في وسعي أن أقنع بها؟ فهذا أمر يصعب عليّ إيضاحه الآن، كل ما أعرفه هو أنني كنت قانعاً بتلك الأحلام. بل إنني قانع بها حتى الآن إلى حدٍّ ما. كانت أحلامي عذبة جميلة جلية بعد كل فترة من فترات التشتت والتسيب، وكانت تلك الأحلام مزوجة باللوم والدموع واللعنات. كانت تمر بي لحظات أشعر فيها بالنشوة والسعادة، ولم أحس خلالها بأية سخرية من نفسي، قسماً بشرفي! كان لي إيمان وألم وحب.

وكانت المشكلة معي أنني كنت في تلك الأيام أؤمن إيماناً أعمى بأن معجزة ما، أو حادثة خارجية ستحدث، وأن هذا كله سيتلاشى، وأنني سأعثر يوماً على فعالية مناسبة، على شيء نبيل جميل، شيء جاهز تماماً (ولم أكن أعرف نوع هذه الفعالية. كل ما كنت أعرفه عنها هو أنها يجب أن تكون جاهزة)، وحينذاك يمكنني أن أظهر في ضوء النهار، راكباً على حصان أبيض، والغار يكلل جبيني. بل لم يكن في وسعي أن أتصور لنفسي منزلة من الدرجة الثانية، ولهذا السبب نفسه قنعت في حياتي العملية بأقل منزلة ممكنة. إما أن أكون بطلاً أو أن أكون القذارة بعينها، فليس هنالك حل وسط. ولكن ذلك أدى إلى دماري، إذ بينما كنت غارقاً في القذارة، كنت أعزي نفسي بأنني كنت بطلاً في أحيان أخرى، وهكذا كان البطل يغطي على القذارة: وكأن الإنسان الفاني العادي كان يخجل من الإغراق في القذارة، أما البطل فقد كان أسمَى من أن يغرق فيها، ولهذا كنت أغوص في تلك القذارة بضمير مرتاح.

ويجدر بي أن أشير إلى أن هذه النوبات التي كنت أشعر فيها بـ «النبل والجمال» كانت تنتابني حتى في الفترات التي كانت تعتريني فيه أشد حالات الكآبة، بل كانت تنتابني حتى حين أكون قد وصلت إلى القعر، إلى القعر تماماً. وكانت تنتابني فجأة، على شكل انفجارات متباعدة، وكانت تذكرني بنفسها بين الحين والحين، ولكن ظهورها لم يكن لينهي انحطاطي، وإنما، بالعكس، كان ظهورها وتناقضها مع انحطاطي يزيدان من حدته، وكانت تلك النوبات تنتهي حين تكون قد فعلت ما يمكن أن يفعله مُشَهٍ ممتاز من مشهيات الطعام. وفي هذه الحالة كان المشهي يتألف من مجموعة من المتناقضات والعذاب، من النقد الذاتي المؤلم، وكانت تلك الغصص والأوجاع كلها تضفي شيئاً من الإثارة بل المعنى على كآبتي الكريهة – كانت كلها، باختصار، تفعل تماماً ما يفعله مشهٍ ممتاز من مشهيات الطعام.

وكان في ذلك كله شيء من العمق أيضاً، وإلا فإنني لم أكن لأقنع بإغراق نفسي في انحطاط من ذلك النوع التافه المباشر الوضيع الذي قد يغرق فيه أي كاتب آخر في دائرة متواضعة. لم يكن ذلك النوع ليقنعني بقبول القذارة، فما الذي كان يدفعني إذن إلى أن أخرج إلى الشارع ليلاً؟ كلا أيها السادة، لقد كنت أجد جانباً نبيلاً في كل شيء...

وكم كان ذلك الحب واسعاً، يا إلهي، كم كان دفاقاً ذلك الحب الذي كنت أنهل منه في تلك الأحلام! وفي تلك الساعات التي كنت أجد فيها «الخلاص خلال استمتاعي بكل ما هو نبيل وجميل»، وبالرغم من أن ذلك النوع من الحب كان خيالياً، وبالرغم من أنه لم تكن له أية صلة حقيقية بأي شيء من خصائص البشر، إلا أن ذلك الحب كان يتدفق، كان يتدفق بحيث لا يعود المرء يشعر بحاجة إلى ممارسته بالفعل بعد ذلك، ولو حدث ذلك لكان نزقاً لا داعي له.

وكان كل شيء ينتهي دائماً نهاية مرضية، كان ينتهي إلى تحول كسول ذاهل نحو الفن، أو نحو أشكال الوجود الجديدة، ويلوح كل شيء جاهزاً، منتزعاً انتزاعاً من الشعراء وكتاب القصة، ومعداً إعداداً يجعله مناسباً لكل حاجة محتملة. لقد كنت أشعر مثلاً بأنني انتصرت على كل شيء، وأن كل شيء كان يستلقي في التراب تحت قدمي، وأن الجميع صاروا يعترفون اعترافاً كاملاً صادراً عن إرادتهم الحرة بكمالي، ولهذا كنت أغتفر للجميع وكنت أسامحهم. كنت أجد نفسي شاعراً شهيداً، أو مستشاراً في البلاط، وكنت أحب، وأصبح مليونيراً عظيماً، وأخصص كل ثروتي لتحسين أحوال البشر، ثم أعترف بعد ذلك بكل جرائمي الشريرة أمام جميع الناس، ولا حاجة بي إلى القول بأن جرائمي لم تكن مخجلة شريرة بالفعل، وإنما كان فيها

شيء من «النبل والجمال»، شيء من طراز مانفريد، ويتحب الجميع، ويقبلونني (أي حمقى هم إن لم يفعلوا ذلك!)، بل إنني لأنطلق عاري القدمين جائعاً، مبشراً بأفكار جديدة، أو مهدداً الرجعيين بواترلو جديدة، ويحدث بعد ذلك أن تعزف الفرقة الموسيقية مسيرة، ويصدر عفو عام، ويوافق البابا على مغادرة روما إلى البرازيل، ثم تقام حفلة لإيطاليا كلها في فيلا بورغيس على ضفاف بحيرة كومو، تلك البحيرة التي يتم نقلها إلى مكان قريب من روما لهذا الغرض، ثم يتبع ذلك مشهد بين الشجيرات.. وهكذا - ولا تقولوا إنكم لا تعرفون ذلك. ستقولون إن القيام بذلك وسط الجمهور هو أمر عادي حقير، بعد كل تلك الدموع والتبدلات التي طرأت عليّ والتي اعترفت بها منذ قليل، ولكن لماذا تعتبرون ذلك أمراً حقيراً؟ وهل تعتبرون أنني أخجل من ذلك كله؟ وهل تعتقدون بأن ذلك كان أشد تفاهة من أي شيء في حياتكم أيها السادة؟ دعوني إذن أؤكد لكم أنني لم أفعل عدداً معيناً من تلك الأمور الشريرة.. ولم يحدث ذلك كله على ضفاف بحيرة كومو فقط، بالرغم من أنكم على صواب من الناحية الأخرى، لأنه في الواقع أمر حقير، أما الأحقر من ذلك فهو أنني أحاول الآن أن أدافع عن نفسي أمامكم. لنكتف بذلك، وإلا فإنه لن ينتهي؛ وإنما ستزيد الأمور حقارة. لم يكن في وسعي أن أقضي أكثر من ثلاثة أشهر في تلك الأحلام دون أن أشعر بميل للانغمار في الحياة الاجتماعية، وكان الانغمار في الحياة الاجتماعية يعني بالنسبة لي زيارة أقوم بها لأنطون أنطونوفيتش سيتوشكين، رئيس الشعبة التي أعمل بها، وكان الإنسان الوحيد الذي عرفته طيلة حياتي، وليس في وسعي إلا أن أندهش من ذلك حتى الآن. بيد أنني كنت أزوره حين كنت أجد نفسي في مزاج طيب فقط، حين تكون أحلامي قد بلغت ذروة السعادة، لأنني كنت أشعر آنذاك برغبة ملحة لا

تقاوم في أن أعانق جميع زملائي، بل البشر كلهم. ولكن ليفعل المرء ذلك عليه أن يجدْ شخصاً واحداً موجوداً بالفعل. ولم يكن في استطاعة أحد أن يزور أنطون أنطونوفيتش إلا في أيام الثلاثاء (كان الثلاثاء هو اليوم المخصص لاستقبال الزائرين في بيت أنطون)، ولهذا كان عليّ أن أضع نفسي في ذلك المزاج الذي كان يحبب لي البشرية كلها في أيام الثلاثاء. وكان أنطون أنطونوفيتش سيتوشكين يعيش في الطابق الرابع من عمارة «الزوايا الخمس»، وكان يشغل أربع غرف منخفضة السقوف، الواحدة أصغر من الأخرى، وكانت غرفاً كئيبة جرداء، وكانت تعيش معه ابنتاه وعمتهما التي كانت تصب الشاي دائماً. كانت إحداهما في السادسة عشرة والأخرى في الرابعة عشرة من العمر، وكان لكل واحدة منهما أنف أفطس.

وقد اعتادتا أن تسببا لي حرجاً شديداً لأنهما كانتا تتهامسان دائماً وتتضاحكان سراً. أما رب الأسرة فقد كان يقضي وقته في مكتبه، جالساً على أريكة جلدية موضوعة أمام كتبه، وكان يجلس معه زائر أشيب يعمل موظفاً في شعبتنا، وكان يحضر لزيارته موظفون من الشُّعب الأخرى في بعض الأحيان أيضاً. ولكني لم أجد لديه يوماً أكثر من شخصين أو ثلاثة أاشخاص في وقت واحد، وكانوا جميعاً من طراز واحد، وكان الحديث المعتاد يدور عن الضرائب والرسوم ومجلس الشيوخ والرواتب والترقيات وصاحب السعادة والأمور التي ترضيه.. إلخ، إلخ، وكنت أجلس ساعات طويلة كالمغفل صابراً على حديثهم مستمعاً إليهم دون أن أجرؤ على قول شيء، بل دون أن أعرف ما في وسعي أن أقوله. وكنت أشعر بالضيق شيئاً فشيئاً، لأنني كنت أعود إلى البيت على الأقل وأقرر أن أتخلى عن فكرة معانقة البشر.

كان لي أيضاً صديق آخر اسمه سيمونوف، وكنت أعرفه من عهد الدراسة. كنت أعرف الكثيرين م زملائي في الدراسة في بطرسبرغ، إلا أنني لم أكن أتصل بهم، بل لم أكن أحييهم حين كنت أقابلهم في الشارع. ولعل المسبب الذي دعا إلى نقلي من شعبة إلى أخرى هو أنني لم أكن أميل إلى أن يكون لي شأن مع هؤلاء الزملاء. لقد أردت أن أبتعد عن كل ما كان يذكرني بسنوات طفولتي الكريهة إلى نفسي. لتذهب تلك المدرسة وسنوات العبودية اللعينة إلى الجحيم! ولقد قطعت كل علاقاتي بزملاء الدراسة حالما دخلت معترك الحياة، ومع ذلك فقد ظللت أتبادل التحيات مع اثنين أو ثلاثة منهم في الشارع.

كان سيمونوف أحد هؤلاء، وكان في أيام الدراسة طفلاً هادئاً دمث الخلق، ولكنه لم يكن لامعاً، إلا أنني اكتشفت فيه شيئاً من استقلال الشخصية بل الأمانة. ولست أظن أنه كان غبياً، لم يكن غبياً جداً على أي حال. وقد قضينا أوقاتاً ممتعة معاً، ولكنها لم تدم طويلاً، وإنما تلاشت بسرعة. وبدأت أشعر بأنه لم يكن ميالاً إلى تذكري في تلك الأيام، وبأنه كان يخسى أن أعود إلى تكرار النغمة ذاتها معه. بل كنت أتصور أنه كان يكره رؤيتي، ولكنني لم أكن متأكداً من ذلك، ولهذا ظللت أزوره، ووجدت نفسي في أحد أيام الخميس غير قادر على احتمال الوحدة، ولما كنت أعرف أن أنطون أنطونوفيتش يغلق أبوابه في أيام الخميس، فقد فكرت في سيمونوف.

وبينما كنت أرتقي السلالم صاعداً إلى الطابق الرابع، لم يكن في وسعي أن أكف عن التفكير في أنه قد يكون ضجراً مني كارهاً لرؤيتي، وعن التفكير في أنني قد أضيع وقته بذهابي لزيارته. بيد أن مثل هذه الأفكار كانت تزيدني رغبة في أن أضع نفسي في منزلة واحدة مع الآخرين ولهذا فقد دخلت عليه، بعد أن كان قد مرّ عام كامل على زيارتي الأخيرة له.

3

ووجدت معه اثنين آخرين من زملاء الدراسة. ولاحَ لي أنهم كانوا يبحثون في أمر شديد الأهمية، ولم يبدِ عليهم أنهم اهتموا كبير اهتمام بوصولي، الأمر الذي لاح لي شاذاً، لأنني لم أكن قد رأيتهم منذ أعوام. لا شك في أنهم كانوا ينظرون إليّ باعتباري حشرة عادية، ولم يحدث لي مرة أن أُعامل بمثل تلك المعاملة حتى ولا في أيام الدراسة، رغم أنهم كانوا جميعاً يكرهونني آنذاك. ولقد أدركت طبعاً أنه لم يكن في وسعهم إلا أن يحتقروني، لأنني لم أكن موظفاً على الملاك الدائم، ولأنني كنت قد تدهورت ذلك التدهور، ولأن ملابسي كانت رثة دائماً.. إلخ، وكان ذلك يلوح في عيونهم واضحاً وكأنه إعلان عن عدم كفايتي وقلة أهميتي. ومع ذلك، لم أكن أتوقع مثل هذا الاحتقار الشديد. ولم يستطع سيمونوف أن يخفي دهشته من زيارتي المفاجئة. كان يبدي تلك الدهشة كلما زرته. كان ذلك هو ما كنت أشعر به على الأقل، وقد أقلقني ذلك كثيراً، وجلست وأنا أشعر بأنني كنت بعيداً عنهم، وطفقت أستمع إلى حديثهم. كانوا يتباحثون باهتمام شديد، بل إنهم كانوا يدرسون بحرارة مسألة إقامة حفلة عشاء في اليوم التالي لصديق لهم. وقد علمت أن ذلك الصديق كان ضابطاً اسمه زفيركوف، كان على وشك السفر إلى منطقة بعيدة. كان زفيركوف هذا من زملائي في الدراسة أيضاً، إلا أنني كرهته، خاصة في الصفوف المتقدمة، أما

في الصفوف الأولى فقد كان يلوح صبياً دمث الخلق خفيف الظل مقرباً من الجميع. لقد كرهته حتى في الصفوف الأولى، لا لسبب، إلا أنه كان على تلك الدماثة وخفة الظل. ولم يكن ممتازاً في الدروس، وكان يزداد تأخراً في دروسه يوماً بعد يوم، إلا أنه حصل على الشهادة لأنه كان له أقرباء متنفذون. وفي السنة الأخيرة من الدراسة ورث مقاطعة كان يعمل فيها مائتا فلاح، ولما كنا جميعاً فقراء فقد كان يشمخ بأنفه بيننا. وكان عادياً جداً، إلا أنه كان فتىً طيباً حتى كان يبلغ ذروة زهوه نفسه. وبالرغم من كل مفاهيم الشرف والعدالة، تلك المفاهيم السطحية الخيالية الجوفاء التي كنا نتعلمها في المدرسة فقد كان معظمنا يتملقون زفيركوف، وكان كلما زاد في زهوه وشموخه يزيدون ميْلاً إلى التقرب منه. ولم يكونوا يفعلون ذلك بسبب دوافع ذاتية، وإنما لأن الطبيعة كانت قد وهبته بعض الأشياء. وبالإضافة إلى ذلك فقد كنا ننظر إلى زفيركوف باحترام لأنه كان بارعاً في أمور الأناقة ومتطلبات المجتمع الراقية، وكان الأمر الأخير هو الذي أثارني أكثر من أي شيء آخر، وقد كرهته لصوته أيضاً، لأنه كان يوحي باعتداده وثقته بنفسه، وكرهت طريقته في إلقاء النكات السخيفة، رغم أنه كان جسوراً في تعابيره. وكرهت أيضاً وجهه الجميل الذي كان مع ذلك يتميز بالبلاهة (ولكنني كنت مستعداً لاستبدال وجهي به رغم كل ما كان يلوح في وجهي من ذكاء) وكرهت أيضاً حركاته العسكرية الرشيقة التي كانت تعتبر موضة العصر حوالي عام 1840. وكرهت أيضا طريقته في الحديث عن فتوحاته في المستقبل، (رغم أنه لم تكن لديه الشجاعة الكافية لينشئ لنفسه علاقة مع إحدى النساء، وكان ينتظر بفارغ الصبر أن يحصل على الرتبة العسكرية لتساعده في ذلك)، وكرهت حديثه عن المبارزات التي سيخوضها في كل لحظة، كيف أنني جادلته بعنف، رغم أنني كنت متحفظاً

صامتاً دائماً، حين تحدث عن غرامياته في المستقبل مع صديقاته، وحين نسي نفسه في غمار الحديث، فصرح فجأة بأنه لن يترك فتاة عذراء في مقاطعته وأن ذلك كان من حقه، وإذا جرؤ فلاحوه على الاعتراض فإنه سيجلدهم بالسوط ويضاعف ضرائبهم... أولئك الأنذال الملتحون!

وصفق المنافقون له، أما أنا فقد هاجمته بعنف، لا لأنني كنت مشفقاً على العذارى أو على آبائهن، وإنما لأنه لم يعجبني أن يصفق هؤلاء لهذه الحشرة. وقد تغلبت عليه، ولكن بالرغم من حماقة زفيركوف فقد كان شديد المرح، وهكذا استطاع أن يسخر من الأمر كله ببراعة، بحيث لم يكن في وسعي أن أتغلب عليه في النهاية، لأن السخرية كانت موجهة ضدي. وقد تغلب عليّ عدة مرات بعد ذلك بسخريته التي لم تتصف بالحقد على كل حال، ولم أكن لأرد عليه وإنما كنت أعبر عن اشمئزازي واحتقاري له بالصمت.

وحين تركنا المدرسة لاح زفيركوف ميالاً إلى صحبتي، وأعجبني ذلك، فلم أعترض عليه. بيد أننا سرعان ما افترقنا بصورة جد طبيعية، ثم سمعت بعد ذلك عن نجاحاته كضابط في الجيش، وعن الحياة المرحة التي كان يحياها، ثم بدأ لا يكترث لي في الشارع، وصرت أعتقد بأنه لم يكن يريد أن يتنازل ليحيي إنساناً لا قيمة له مثلي. ورأيته مرة في المسرح، وشرائط الرتبة على كتفه، وكان منحنياً يتحدث إلى بنات جنرال عجوز كانت سنوات ثلاث كافية لسلبه ملامحه الفتية، إلا أنه كان مع ذلك ما يزال جميلاً أنيقاً. وكان قد بدأ يتصرف بشيء من العظمة والزهو، ولاحَ لي أنه لن يبلغ الثلاثين إلا ويكون مترهلاً مفرطاً في السمنة.

كان أصدقائي يبحثون فكرة إقامة حفلة عشاء لزفيركوف، هذا الذي كان على وشك الرحيل عن العاصمة. وكانوا من أصدقائه المقربين،

مع ذلك فقد كنت متأكداً من أنهم لم يكونوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم كانوا في منزلة واحدة معه.

كان أحد صديقي سيمونوف يدعى فيرفشكين، وكان روسياً من أصل ألماني، قميئاً له وجهه كوجه القرد، وكان من ألد أعدائي منذ أيام الدراسة، لأنه كان حقيراً سمجاً مغروراً يضفي على نفسه من مظاهر النبل والشرف أكثر من طاقته، في حين أنه كان في صميمه جباناً فاسداً، وكان واحداً من أولئك الذين كانوا يعجبون بزفيركوف ويتملقونه تدفعهم إلى ذلك أنانيتهم، لأنهم كانوا يقترضون منه النقود دائماً.

أما ترودليوبوف، صديق سيمونوف الآخر، فقد كان عادياً مغموراً، وكان ضابطاً في الجيش، طويل القامة بارد الملامح، أميناً إلى حدٍّ ما، ولكنه كان مولعاً بأي شكل من أشكال النجاح، ولم يكن بوسعه أن يتحدث عن شيء غير الترقيات. ولاح لي أنه كان من أقرباء زفيركوف، وقد أسبغ عليه ذلك شيئاً من الاحترام بيننا، رغم سخف الاعتراف بهذا. وكان يعتبرني دائماً إنساناً لا قيمة له، وبالرغم من أنه لم يكن مؤدباً معي، إلا أن معاملته لي كانت معقولة نوعاً ما.

وقال ترودليوبوف:

- حسناً، أعتقد أنه إذا دفع كل واحد منا سبعة روبلات، فسيكون لدينا واحد وعشرون روبلاً، وسيكون في وسعنا أن نقيم له حفلة عشاء ممتازة، ولن يدفع زفيركوف شيئاً بالطبع، وأيّده سيمونوف قائلاً:

- طبعاً، إذ إننا سنوجه إليه دعوة.

أما فيرفشكين فقد قال باستغراب، وبلهجة تشبه لهجة الجندي الخادم حين يتحدث فخوراً بأوشحة سيده الجنرال:

- أنتم، بالتأكيد، لا تعتقدون بأن زفيركوف سيسمح لنا بأن ندفع عنه شيئاً، وحتى إذا فعل مدفوعاً إلى ذلك به قتضيات اللياقة، فإنني أراهن على أنه سيساهم بست قناني من الشمبانيا.

واهتم ترودوليوبوف بموضوع القناني الست فعلق قائلاً:

- أعتقد أن ست قناني من الشمبانيا كثيرة جداً بالنسبة لأربعتنا، أليس كذلك؟

وأخيراً قال سيمونوف، الذي اختير منظماً للحفلة:

- سنساهم ثلاثتنا بواحد وعشرين روبلاً إذن، وسيكون زفيركوف رابعنا في فندق باريس، غداً في الساعة الخامسة.

وهنا قلت بشيء من الانفعال، متظاهراً بالاستياء:

- كيف تقول واحداً وعشرين روبلاً؟ فلو أشركتني معكم لصار المبلغ ثمانية وعشرين روبلاً بدلاً من واحد وعشرين.

وشعرت بأن اشتراكي المفاجئ في الاستعداد للحفلة كان بادرة طيبة من جانبي وأنهم سيوافقون على ذلك بحماسة، وينظرون إليّ باحترام.

بيد أن سيمونوف قال دون أن يخفي استياءه، محاولاً أن يتجنب النظر إليّ:

- ما أظنك تريد الاشتراك في هذا الأمر، أليس كذلك؟

كان يقرأ دخيلة نفسي كما يقرأ كتاباً.

وأغضبني أن يكون قادراً على قراءة دخيلتي وكأنه يقرأ كتاباً، فاندفعت أقول:

- ولماذا لا أفعل ذلك؟ ألم أكن من زملائه في عهد الدراسة؟

إنني لا أملك إلا أن أبدي استيائي من تخطيكم لي هكذا.

وهنا تدخل فيرفشكين قائلاً بعنف:

- وأين كنا سنجدك؟

وقال ترودوليوبوف وهو مكفهر الوجه:

- أنت تعرف أنك لم تكن على وفاق مع زفيركوف.

بيد أنني أردت أن أتمسك بموقفي وأن لا أتنازل عنه بسهولة، فأجبت بانفعال شديد، وكأنه قد حدث شيء خطير:

- ما أظن أن لأي أحد حقاً في أن يدلي برأي في هذا، إذ قد أكون ميالاً إلى رؤيته الآن لأنني لم أكن على وفاق معه في الماضي.

وصرّ ترودوليوبوف على أسنانه وقال:

- ومن يستطيع أن يستثنيك؟

- كل تلك المُثُل العليا البديعة...

وهنا لاحَ أن سيمونوف كان قد قرّ على رأي، لأنه قال فجأة:

- حسناً جداً، سنضيف اسمك. لا تنسَ أن تحضر غداً في الساعة الخامسة إلى فندق باريس.

ولكن فيرفشكين قال لسيمونوف هامساً، مشيراً إليّ:

- والنقود؟

ولكنه توقف، لأنه رأى سيمونوف نفسه مكان يشعر بالحرج.

وقال ترودوليوبوف وهو ينهض:

- دعه يحضر إذن، إذا كان يريد ذلك إلى هذا الحد.

والتقط فيرفشكين قبعته وتمتم قائلاً:

- ولكن، اللعنة على كل شيء! إنه عشاء وحسب، يحضره بضعة أشخاص تربطهم الصداقة والمودة، وليس اجتماعاً رسمياً، بل ما أدراك أننا نريدك؟

وغادرا الغرفة، ولكن فيرفشكين لم يجد داعياً لتحيتي، أما ترودوليوبوف فقد أومأ برأسه إيماءة خفيفة دون أن ينظر إليّ، في حين لاح سيمونوف، الذي ظلّ وحده معي، مرتبكاً حائراً، وكان يوجه نحوي نظرة غريبة. ولم يجلس، كما أنه لم يطلب الجلوس.

وتمتم سيمونوف قائلاً بارتباك شديد:

- هم م م م... أجل، إلى الغد إذن. أتسمح بإعطائي النقود الآن؟ أعني أنني أريد أن أعرف...

واحمر وجهي، إذ تذكرت أنني كنت مديناً لسيمونوف بخمسة عشر روبلاً منذ بضع سنوات، ولم أكن قد نسيت ذلك، رغم أنني لم أعد إليه النقود.

- ولكنك تعرف يا سيمونوف أنني لم أكن أتوقع حين جئت هنا أنني - أعني أنني آسف جداً بالطبع لأنني نسيت...

- حسناً، حسناً، لن يغير ذلك شيئاً، إذ تستطيع أن تعطيني المبلغ غداً أثناء العشاء. كنت أريد أن اعرف فقط، وهذا هو كل ما في الأمر، أرجوك،

لا - وكف عن الحديث فجأة، ثم طفق يذرع أرض الغرفة بانفعال شديد، وكان وهو يخطو يرفع كعبيه ويضرب الأرض بهما بعنف.

ومرت دقيقتان من الصمت، وقلت له:

- أظن أنني أؤخرك..

فقال بحدة:

- آه، لا، أبداً، أعني، الواقع أنك تفعل، إذ إن لدي موعداً مع أحدهم - ليس بعيداً من هنا.

وكان قد أضاف العبارة الأخيرة بصوت يتدفق بالأعذار والخجل. فقلت: بعد أن تناولت قبعتي بلا اكتراث، رغم أن الله وحده يعرف كيف عرفت مكانها:

- يا الله، لماذا لم تخبرني؟

وأجاب سيمونوف وهو يودعني عند الباب بعجالة لم تكن تليق به:

- إنه قريب من هنا في الواقع.. بضع خطوات فقط.. إلى الغد إذن، في الخامسة بالضبط.

كانت تلك الكلمات الأخيرة التي سمعتها منه حين كنت أهبط السلم، وكان يلوح مغتبطاً جداً بذهابي، بيد أنني كنت أشعر بغضب جنوني.

وقلت لنفسي وأنا أصر على أسناني حين وجدت نفسي وحيداً في الشارع: ما الذي جعلني أفعل ذلك؟ ومن أجل خنزير فاسد مثل زفيركوف! يجب عليّ ألا أذهب بالطبع، وليذهب الجميع إلى الجحيم، ولماذا

يتعين عليّ أن أذهب؟؟ لست مضطراً أن أفعل ذلك! وسأخبر سيمونوف برسالة أرسلها إليه بالبريد غداً.

ولكنني كنت منفعلاً، لأنني كنت أعرف تماماً أنه كان عليّ أن أذهب، كان عليّ أن أذهب متقصداً، وكلما كان ذلك يبدو غير لائق، غير باعث على الاحترام، فإنه كان يزيد من إصراري على الذهاب.

بيد أنه كان هنالك سبب وجيه يدفعني إلى عدم الذهاب: إذ إنني لم أكن أملك نقوداً. كان كل ما معي تسعة روبلات، وكان عليّ أن أعطي أبوللون الخادم سبعة روبلات في اليوم التالي، لأنه كان على موعد استحقاقه الراتب الشهري ولم يكن في وسعي أن أفكر في تأجيل راتب أبوللون، لأنني كنت أعرف أي نوع من البشر هو، رغم أنني لم أصف لكم هذا الشيطان حتى الآن.

وعلى كل حال فقد كنت أعرف جيداً أنني لن أعطي أبوللون شيئاً، وأنني سأحضر حفلة العشاء.

وفي تلك الليلة حلمت أحلاماً مزعجة جداً، ولا عجب فقد ظللت طيلة المساء أستعيد ذكريات المدرسة الكريهة، ولم يكن في وسعي أن أتخلص من تلك الذكريات.

لقد أرسلني إلى المدرسة بعض الأقارب الذين كانوا يعيلونني ولكنني لم أسمع عنهم شيئاً بعد ذلك. وكانوا قد دفعوا بي إلى تلك المدرسة يتيماً، بعد أن صبوا عليّ ما صبوا من الإهانات، وكنت قد تعودت على التأمل، والنظر إلى الأشياء بمنظار قاتم والجلوس صامتاً ساعات طويلة، وقد سخر بي زملائي في المدرسة بلا شفقة، لأنني لم أكن أشبههم في شيء،

وكانت المسخرية الشيء الوحيد الذي لم أكن أستطيع احتماله. ولم يكن بوسعي أن أعقد صداقات مع الناس، كما كانوا يفعلون فيما بينهم.

وهكذا كرهتهم جميعاً، وتركتهم، وتقوقعت في كبريائي الجريح الجبان المفرط. وكانت خشونتهم تخيفني، وكان وجهي يضحكهم، وكذلك قامتي القصيرة، ومع ذلك فقد كانت وجوههم تتسم بالبلاهة، بل كانت الوجوه في تلك المدرسة تزداد بلاهة يوماً بعد يوم. كان الأطفال يدخلون تلك المدرسة لطفاء ظرفاء، فما تمر عليهم بضع سنوات حتى لا يملك الإنسان حين يراهم إلا أن يشعر بالاشمئزاز منهم. وحتى في تلك السن أيضاً ما كان في أفكارهم من سخف وما في تصرفاتهم وألعابهم وأحاديثهم من حمق وتفاهة.

ولم يكونوا يفهمون حتى أشد الأشياء ضرورة، ولم يكونوا مولعين إلا بكل ما هو عادي، لم يكن يعجبهم العمق في التفكير، ولهذا كنت أعتبرهم أقل من مستواي، ولم يدفعني إلى كرههم كبريائي الجريح، وأرجوك ألا تعترضوا على ذلك وألا تقولوا مثلاً إنني كنت حالماً في حين أنهم كانوا يفهمون الحياة على حقيقتها حتى في ذلك الحين، لأنهم لم يكونوا يفهمون شيئاً، ولم تكن لديهم أقل فكرة عن الحياة الحقيقية، ولعل ذلك أن من أهم الأمور التي لم يكن في وسعي أن أحتملها فيهم، بالعكس، لقد كانوا تافهين في مفاهيمهم عن أبسط الأشياء وعن أقل الحقائق شأناً، وكان كل ما يعجبهم في تلك السن النجاح وحسب. كانت الأشياء العادلة تضحكهم لمجرد أنها كانت تلوح عديمة القيمة، وكانوا يسخرون بلا خجل ولا رحمة. وكانوا يسيئون فهم الفكر ويحسبون أنه المنزلة الاجتماعية، وكان كل ما يهمهم في سن السادسة عشرة هو التفكير في المناصب المريحة. وكان الحب

في ذلك يعود إلى الغالب إلى حماقتهم وإلى الأمثلة السيئة التي كانت تحيط بهم في الطفولة وفي المراهقة. وكانوا إلى ذلك شريرين جداً، وأظن أنهم كانوا يتظاهرون بذلك تظاهراً، كانت شرورهم نوعاً من السخرية المصطنعة، وكان باستطاعة المرء أن يلمس في تلك الشرور لمحات من مظاهر الشباب والأصالة، إلا أنه لم يكن في تلك الأصالة شيء محبب، وإنما كانت تأخذ شكلاً من أشكال التفسخ والانحطاط. لقد كرهتهم كرهاً شديداً، رغم أنني كنت في الواقع أسوأ معهم. وقد أجابوني المثل، فلم يخفوا اشمئزازهم مني. على أنني لم أكن أريد بعد ذلك أن يميلوا إليّ، بالعكس، كنت أتشوق دائماً إلى إخضاعهم وتحقيرهم. ولكي أنجو من سخريتهم فقد بذلت جهوداً صادقة في دروسي، وسرعان ما أصبحت من بين الأوائل في صفي.

وقد أثر ذلك فيهم كثيراً، وصاروا يدركون شيئاً فشيئاً أنه كان باستطاعتي أن أقرأ الكتب التي لم يكونوا قادرين على قراءتها وأن أفهم الأمور (التي لم تكن ضمن منهاجنا) والتي لم يكونوا قد سمعوا بها. وكانوا ينظرون إلى هذا كله بكآبة، وسخرية، رغم أنهم كانوا يعترفون بتفوقي، لأن الأساتذة أنفسهم كانوا يهتمون بي بسبب ذلك وكفوا عن السخرية، إلا أنهم ظلوا يكرهونني، وهكذا توترت العلاقات بيني وبينهم إلى حد بعيد، وأخيراً لم يعد في وسعي أن أحتمل ذلك كله، وكنت كلما تقدمت في العمر أشعر بالميل إلى الاجتماع بالناس يزداد في نفسي وبالحاجة إلى الأصدقاء تلح عليّ إلحاحاً. وحاولت أن أزامل بعضهم، بيد أن صداقتي معهم لم تكن طبيعية وكان تنتهي بصورة تلقائية، وقد حدث أن صادقت أحدهم يوماً، إلا أنني كنت في ذلك الحين قد بلغت منتهى الطغيان، فأردت أن أسيطر عليه سيطرة تامة، وأردت أن أزرع في قلبه كرهاً لما حوله، وطلبت منه أن يقطع صلاته بمن كانوا يحيطون به بصورة نهائية وبمنتهى الاحتقار. وقد

أخافته حرارة صداقتي التي أحطته بها، حتى لقد كان يبكي وتتملكه الهستيريا. وكان طيباً مخلصاً، بيد أنني في اللحظة التي شعرت فيها بأنه صار تحت سيطرتي نهائياً بدأت أكرهه، وابتعدت عنه، وكأنني كنت رافقته لمجرد أنني أردت أن أسيطر عليه! لمجرد أنني كنت أريده أن يخضع لي خضوعاً تاماً. ولكنني لم أستطع التغلب على الآخرين. وكان صديقي هذا يختلف عنهم، بل إنه كان شاذاً بينهم. وكان أول شيء فعلته حين تركت المدرسة هو أنني تخليت عن المهنة التي كانت تلك المدرسة قد أعدتني لها، لا لسبب إلا لأني كنت أريد أن أقطع كل صلة تربطني بالماضي، ذلك الماضي الذي كرهته أشد الكره.. اللعنة عليّ، إذ كيف أذهب بعد هذا كله لأزور سيمونوف؟

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي قفزت من فراشي بانفعال شديد وكأن كل شيء كان سيحدث في تلك اللحظة. ولكنني كنت أشعر شعوراً أكيداً بأن تبدلاً شديد الأهمية كان سيطرأ على حياتي، وكنت أشعر بأن ذلك التبدل كان سيحدث في ذلك اليوم بالذات. وسواء لم أكن معتاداً على حدوث التبدلات أو لسبب آخر فإنني ظللت طيلة حياتي أشعر بأنه سيكون في استطاعة أية حادثة خارجية مهما تفهمت، أن تُحدث تبدلاً جوهرياً في حياتي. وعلى كل حال فقد ذهبت إلى الدائرة كالمعتاد، إلا أنني تركتها قبل ساعتين من انتهاء الدوام وعدت إلى البيت لأستعد للأمر. وفكرت في نفسي بأنه لم يكن ضرورياً أن أحضر قبلهم لئلا يعتقدوا أنني كنت مغتبطاً بصحبتهم بالفعل، إلا أنه كانت هنالك آلاف من الأمور الهامة التي كان عليّ أن أفكر بها، وقد أثارني ذلك إلى درجة أنني بدأت أشعر بانهيار جسدي عنيف، ولمعت حذائي بيدي، إذ لم يكن أبوللون مستعداً لتلميع حذائي مرتين في يوم واحد ولو أعطيته العالم كله، لأنه كان يعتبر

ذلك أمراً شاذاً. وقد لمعت الحذاء بالفرشاة التي اختطفتها عند دخولي، لأنني لم أرد أن يحتقرني أبوللون بسبب ذلك، فيما لو علم بالأمر، ثم تفحصت ملابسي بعناية، فوجدت أنها كانت قديمة جداً، ممزقة، مملوءة بالبقع. وعلمت أنني كنت قد أهملت مظهري إهمالاً شديداً. وكانت بذلتي الرسمية ما تزال صالحة، إلا أنه لم يكن في وسعي أن أحضر حفلة عشاء بالبذلة الرسمية، بالإضافة إلى أنه كان على سروالها بقعتان صفراوان واسعتان عند موضع الركبتين. وكنت أعرف مقدماً أن تلك البقع وحدها كانت ستجردني من تسعة أعشار احترامي لنفسي، وكنت أعرف أيضاً أنني لم أكن أستحق أن أفكر باحترامي لنفسي، إلا أنني قلت إن ذلك لم يكن وقتاً مناسباً للتفكير في هذا. إذ كان عليّ أن أواجه الواقع. وغاص قلبي بين جنبي حين فكرت في هذا. وكنت أعرف طبعاً أنني كنت أبالغ في تضخيم الحقائق، ولكن ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ لقد فات الوقت، ولم أكن قادراً على السيطرة على مشاعري، وكنت أرتعد محموماً، لأنني كنت أتخيل في يأس البرود الشديد الذي كان زفيركوف الحقير سيواجهني به والاحتقار والغباء اللذين كانا سيلوحان في وجه ترودوليوبوف حين يراني، والإهانات التي كان فيرفشكين، ذلك الحشرة، سيصبها عليّ من أجل إمتاع زفيركوف. وكنت أتخيل كيف أن سيمونوف سيفهم ذلك تماماً وسيحتقرني لتفاهة كبريائي وثقل دمي، وفوق ذلك كله، كم سيكون الأمر كله تافهاً سطحياً. إن أفضل الأشياء طبعاً هو أن لا أذهب، بيد أنني لم أكن أميل إلى التفكير في ذلك. إذ لم أكن أشعر يوماً بأن شيئاً كان يجتذبني إلا وأجد نفسي مندفعاً إليه، فإن لم أفعل ذلك فإنني سأظل طيلة حياتي أقول لنفسي: كنت خائفاً إذن؟ خائفاً من الحياة! خائفاً! بالعكس، كنت أميل دائماً إلى أن أبين لهؤلاء العوام أنني لم أكن جباناً بالدرجة التي كنت أتصور نفسي عليها، ولم

يكن ذلك كل شيء... إذ كنت في أشد نوبات حمى الجبان التي كانت تصيبني أحلم بأنني كنت صاحب اليد العليا وبأنني كنت أفضل منهم، وبأنني كنت أضطرهم إلى الإعجاب بين والميل إليّ -على الأقل- من أجل «أفكاري العالي ونبوغي الواضح» وكنت أحلم بأنهم سيديرون ظهورهم نحو زفيركوف، وسيجلس وحده في إحدى الزوايا صامتاً خجلاً، بعد أن أكون قد سحقته، وكنت سأعود إليه بعد ذلك وأشرب معه نخب صداقتنا الأبدية. إلا أن أسوأ ما كان يغيظني هو أنني كنت حتى في ذلك أعرف دون أي شك أنني لم أكن أريد في الواقع شيئاً من ذلك كله، وأنني لم أكن أملك أقل رغبة في التغلب عليهم أو سحقهم أو جعلهم يميلون إليّ، وأنني حتى إذا فعلت ذلك فلن أهتم به مطلقاً. آه.. كم صليت لكي ينقضي النهار بسرعة! كنت أشعر بمنتهى الشقاء، وكنت أذهب إلى النافذة بين الحين والحين وأفتح زاوية صغيرة منها وأنظر إلى العتمة التي كان يصبغها الثلج الندي المتساقط.. وأخيراً دقت ساعتي الرخيصة خمس دقات، فاختطفت قبعتي وخرجت محاولاً ألا أنظر إلى أبوللون الذي كان ينتظر أجرته منذ الصباح، ولكنه كان من الغباء بحيث إنه لم يجرؤ على التفكير في المطالبة بها، وخرجت من الباب. وركبت زحافة كلفتني آخر خمسين كوبكاً كنت أملكها، وانطلقت بي الزحافة بشيء من العظمة نحو فندق باريس.

* * *

4

كنت أشعر في اليوم السابق بأنني سأكون أول من يحضر، إلا أنني وجدت الأمر مختلفاً عن ذلك جداً، وليس ذلك لأنني لم أجدهم وحسب، وإنما لأنني لم أستطع أن أعثر على الغرفة أيضاً، ولم تكن هنالك مائدة معدة. ترى ماذا كان يعني ذلك؟ وبعد أن استفسرت من الخدم علمت أن العشاء كان قد تأجل إلى السادسة بدلاً من الخامسة، وقد أكد لي ساقي البار على ذلك أيضاً، وأخجلني أن أستمر مستفسراً. كانت الساعة تشير إلى الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرين. كان عليهم على الأقل أن يخبروني بأنهم سيؤجلون الموعد -وإلا فما معنى تأسيس دائرة البريد؟- ولو فعلوا ذلك لما كانوا عرضوني لهذا الموقف المخجل أمام نفسي - لا أمام الخدم بالتأكيد. وجلست وبدأ الخادم يعد المائدة، وشعرت بذلة أشد في حضوره، ولما اقتربت الساعة من السادسة، أحضر الخدم بعض الشموع، بالإضافة إلى المصابيح المتوهجة، ولم يكن الخدم قد فكروا في جلب تلك الشموع حين حضرت الطبع. وكان في الغرفة الثانية رجلان كئيبان يتناولان طعام العشاء على مادتين منفصلتين، وكانا صامتين، ولاحَ لي أنهما كانا غاضبين. وكان الناس في إحدى الغرف الأخرى يغنون لحناً فظيعاً صائحين بأعلى أصواتهم، وكنت أسمع ضحكات جمع كبير من الناس، وكانت تتخلل ذلك صرخات حادة تتحدث بالفرنسية... كانت هناك سيدات يتناولن طعام العشاء. كان

الأمر كله باعثاً على الغثيان، ولست أذكر ساعة أسوأ من تلك الساعة في حياتي. ولذلك، فحين وصلوا جميعاً في السادسة بالضبط كنت في البداية مغتبطاً جداً برؤيتهم، وكأنهم جاؤوا لينقذوني، بل إنني نسيت أنه كان عليّ أن ألوح لهم مستاء.

ودخل زفيركوف الغرفة قبل الآخرين، وكان واضحاً أنه كان قائد الجماعة. وكان يتضاحك مع زملائه، ولكنه ما أن رآني حتى شد قامته واتجه نحوي ببطء، وانحنى قليلاً كأنه كان يريد أن يحمي نفسه من شيء ما. وكنت تصورت أنه ما أن يحضر حتى يندفع بأسلوبه المعتاد ضاحكاً بعنف ملقياً بنكاته السخيفة وسخريته الباهتة. وكنت أعد نفسي منذ المساء السابق لمجابهة مثل هذا الموقف، ولم أكن أتوقع منه مثل هذه المودة وهذا التصرف المؤدب الذي يقوِ به إلا شخص واحد من الطبقة العالية. وهكذا فقد اعتبر نفسه منذ البداية أسمى مني في كل شيء وقلت لنفسي: إذا كان يريد أن يهينني باتخاذه مظهر جنرال فليس ذلك بالأمر المهم، ولكن ماذا لو كان هذا الأحمق يعتقد في صميم نفسه ودون أية رغبة في الإساءة لي بأنه أسمى مني كثيراً وبأنه يجب أن ينظر إليّ بذلك التعالي؟ كان مجرد التفكير بذلك يخنقني استياء.

واندفع يقول، لاثغاً بطريقة لم يكن يتحدث بها من قبل:

- لقد أدهشني أن أسمع أنك أردت أن تنضم إلينا. وأخشى أن أقول إننا لم نرَ بعضنا كثيراً في الفترة الأخيرة، لأنك تلوح وكأنك تريد أن تتجنبنا. يا الله.. لسنا سيئين إلى هذا الحد. وعلى أية حال، فإنني مغتبط بـ.. استئـ.. ناف..

واستدار بلا اكتراث ليضع قبعته على حافة النافذة، حين قال ترودوليوبوف:

- هل انتظرت طويلاً؟

فقلت بصوت مرتفع، وبشيء من الانفعال لاح وكأنه كان يهدد بانفجار منذ البداية:

- لقد وصلت في الخامسة بالضبط، كما طلب مني بالأمس.

والتفت ترودوليوبوف إلى سيمونوف سائلاً:

- ألم تخبره بأننا كنا قد غيرنا الموعد؟

ورد سيمونوف مجيباً، دون أن يلوح عليه شيء من الأسف، ودون أن يعتذر لي:

- أخشى أنني لم أفعل ذلك، فقد نسيت الأمر تماماً.

ثم ذهب سيمونوف، دون أن يعيرني التفتاً، ليأمر بإحضار المشويات، وصاح زفيركوف بسخرية، وكأن ذلك كان أمراً مضحكاً في عُرفه:

- أيها المسكين! كنت تنتظر منذ ساعة كاملة إذن؟

أما فيرفشكين الوضيع فقد طفق يقهقه ساخراً قهقهات مكتومة ذكرتني بصرخات جرو صغير. كان موقفي يلوح له أتفه من أن يعبر عنه بالكلمات، ولكنني صرخت بوجه فيرفشكين وقد بلغ انفعالي ذروته:

- ليس الأمر مضحكاً أبداً لقد كان خطأ غيري، ولم يكن خطئي. وأعتقد أني لم أكن في نظركم أستحق أن يخبرني أحد. هذا كله لا يعدو أن يكون، أن يكون حماقة شديدة!

وختم ترودوليوبوف ببساطة ملتزماً جانبي:

- ليس حماقة وحسب، وإنما هو شيء آخر أيضاً، ومع ذلك فإنك ما زلت تتصرف بلطف. بل إنه أمر مهين، ولكن لا شك في أنه لم يكن متقصداً، وكيف كان باستطاعة سيمونوف، حسناً !

وقال فيرفشكين:

- لو سخر مني أحد هكذا لكنت...

وهنا قال زفيركوف:

- لكنت طلبت شيئاً لنفسك، أو أمرت بإحضار العشاء وتناولته دون أن تنتظرنا.

فصحت قائلاً:

- ولكن كان بإمكاني بالطبع أن أفعل أكثر من دون أن أنتظركم، وإذا كنت قد انتظرت فإنني..

وهنا صاح سيمونوف وهو يدخل الغرفة:

- دعونا نجلس أيها السادة، كل شيء جاهز، ويمكنني أن آمر بإحضار الشمبانيا! إنها مثلجة جداً.

والتفت إليّ فجأة، وقال دون أن يحاول النظر إليّ:

- آسف! ولكنني لم أكن أعرف عنوانك، ولهذا لم يكن في وسعي الاتصال بك.

لا بد أنه كان قد انقلب ضدي، وغيّر سلوكه نحوي بعد زيارتي له في الليلة السابقة.

وجلس الجميع، وجلست أنا أيضاً، وكانت المائدة مستديرة وكان ترودوليوبوف يجلس إلى يساري، فيحين كان سيمونوف يجلس إلى يميني، أما زفيركوف فقد جلس أمامي، وكان فيرفشكين بينه وبين ترودوليوبوف.

وقال زفيركوف مبدياً شيئاً من الاهتمام بي:

- قل لي من .. فضلك، هل تعمل في مؤسسة حكومية؟ ولاح له أن يكون لطيفاً معين وأن يبث شيئاً من الغبطة في نفسي وقلت لنفسي غاضباً: أيريدني أن أقذفه بقنينة؟ إذ إنني لم أكن قد اعتدت مثل ذلك الجو من قبل، وكان استيائي يتضاعف شيئاً فشيئاً بصورة غير طبيعية. وأجبته وأنا أحملق في الصحن الموضوع أمامي:

- أنا أعمل في... الدائرة.

- يا الله! وهل تكسب من عملك الكفاية؟ قل لي، ما الذي دفعك إلى ترك عملك السابق؟

- فقلت بصعوبة تعادل ثلاثة أضعاف صعوبته في إخراج الكلمات، ودون أن يكون في وشعي أن أضبط نفسي:

- كان ما دفعني إلى ذلك هو أنني سئمت من عملي السابق.

أخرج فيرفشكين صوتاً من أنفه، ورمقني سيمونوف بنظرة حادة، أما ترودوليوبوف فقد كفّ عن التهام الطعام وطفق يراقبني في فضول. وأغمض زفيركوف عينيه وفتحهما متظاهراً بأنه لم يلاحظ شيئاً، وقال:

- حسـ... ناً، وكم؟

- كم ماذا؟

- أعني كم تقبض؟

- لست تمتحنني، أليس كذلك؟

ولكنني أخبرته بمقدار راتبي، واحمررت خجلاً. وقال زفيركوف باهتمام:

- ليس كثيراً.

و   فيرفشكين بطريقة مهينة:

- كلا، بل إنه لا يكفي لكي تدفع ثمن عشائك في مطعم.

أما ترودوليوبوف فقد قال جاداً:

- أعتقد أنه راتب شحاذ.

وأضاف زفيركوف متخلياً عن لا اكتراثه، متفحصاً ملابسي بسخرية صافعة:

- وكم أصبحت نحيفاً، وكم تغيرت منذ تلك الأيام.

وقال فيرفشكين متضاحكاً:

- كفّ عن مضايقة المسكين.

وهنا انفجرت صائحاً:

- أنت مخطئ يا سيدي، إذ إنني لست متضايقاً ألبتة، أتسمعني؟ إنني أتناول طعام العشاء في هذا المطعم على حسابي وليس على حساب الآخرين، فأرجوك أن تلاحظ ذلك أيها السيد فيرفشكين.

وفاجأني فيرفشكين صائحاً بانفعال، وهو يحمر غضباً:

- ماذا تعني؟ ومن هو الذي لا يتعش على حسابه الخاص هنا؟ يلوح لي أنك...

وأجبت وأنا أشعر بأنني كنت أبالغ في قولي:

- إنني أعني ما أقول، بيد أنني أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نتحدث عن شيء آخر أكثر قيمة.

- ما أظنك مشوقاً إلى إظهار ذكائك الآن؟

- ما الذي تتحدث عنه يا سيدي العزيز؟ ما أظنك تفخر (بالشعبة) التي تعمل فيها!

وهنا صاح زفيركوف بصوت آمر:

- كفى، كفى! أيها السادة.

وتمتم سيمونوف:

- أية حماقة لعينة!

أما ترودوليوبوف فقد قال مخاطباً إياي:

- إنها لحماقة لعينة! فها نحن الآن، بضعة أشخاص نجتمع لنودع صديقاً، في حين أنك تحاول أن تثير أموراً عتيقة وقد دعوت نفسك بنفسك بالأمس، فكيف تحاول أن تشوه جو هذا العشاء الآن؟

وصاح زفيركوف ثانية:

- كفى، كفى! اتركوا الموضوع أيها السادة، فليس هذا الوقت أو المكان المناسب للشجار. دعوني أقص عليكم كي أنني كدت أتزوج قبل أيام.

وانطلق يقص عليهم قصة مخزية: كيف أنه كاد يتزوج منذ أيام، وبالمناسبة، فلم يتضمن حديثه شيئاً عن الزواج، وإنما كانت قصته تدور عن الجنرالات والعقداء ومستشاري المحاكم، وكان زفيركوف بالطبع يلعب الدور الأول بينهم. وضحك الجميع استحساناً، وكانت ضحكات فيرفشكين عالية ثاقبة.

ولم يكترث أحد منهم لي، فجلست وأنا أشعر بالانسحاق والذلة.

وقلت لنفسي: يا للسموات! أهذه هي الصحبة التي أردتها لنفسي؟ أي حمار جعلت من نفسي أمامهم؟ بل إنني سمحت لفيرفشكين أن يغرق في إهانتي. إن هؤلاء الحمقى يظنون أنهم يشرفونني بسماحهم لي بالجلوس إلى مائدة واحدة معهم. إنهم لا يدركون أنني أنا الذي أشرفهم، وليسوا هم الذين يسبغون عليّ هذا الشرف: «كم تلوح نحيفاً! وملابسك!» اللعنة على سروالي إنني متأكد من أن زفيركوف لاحظ البقعتين الصفراوين على ركبتي سروالي في اللحظة التي دخل فيها الغرفة... ولكن ماذا أصنع هنا بحق الجحيم؟ الأفضل أن أنهض في الحال، في هذه اللحظة، وأتناول قبعتي وأنصرف دون أن أقول كلمة واحدة... لأريهم إلى أية درجة أحتقرهم! ولست أكترث حتى إذا أدى ذلك إلى مبارزة اشترك فيها صباحاً. الفاسدون القذرون! أيظنون أنني مكترث للروبلات السبعة؟ لعلهم يظنون ذلك... لتذهب إلى الجحيم! إنني لا أكترث للروبلات السبعة! سأنهض في هذه اللحظة!

ولكنني بقيت جالساً بالطبع.

كنت في يأس شديد، وكنت أشرب القدح تلو القدح من الشيري والشاتولافيت. ولما كنت غير متعود على الشراب فقد سكرت بسرعة، وكنت كلما ازددت سكراً ازددت استياءً. ثم شعرت فجأة بأن عليّ أن أهينهم أشد

إهانة ثم أغادرهم. كان عليّ أن أنتظر اللحظة المناسبة، ثم أريهم أي نوع من الرجال أنا، وهكذا اضطرهم إلى الاعتراف بأنني رغم تفاهتي... وأنني...

آه، ليذهبوا إلى الجحيم!

ونظرت إليهم باستخفاف، وكانت أجفاني ثقيلة كالرصاص ولكن لاح لي أنهم كانوا قد نسوني نهائياً، وكانوا يصخبون ويعربدون سعداء، وكان زفيركوف يتحدث طيلة الوقت. وطفت أستمع. كان يتحدث عن امرأة جميلة جداً وكيف أنه استطاع أن يجعلها تعترف بحبها له أخيراً (كان يكذب بالطبع كأي جندي تافه)، وكيف أن صديقاً من أصدقائه الخلص، وكان ضابطاً من الفرسان اسمه كوليا، يمتلك ثلاثة آلاف فلاح، كان قد ساعده في ذلك.

وتدخلت في الحديث قائلاً:

- ومع ذلك فإن صديقك هذا، الذي يمتلك ثلاثة آلاف فلاح، ليس موجوداً هنا، أليس كذلك؟ أعني ليودعك. وكان هنالك صمت، استمر بضع لحظات وأخيراً تنازل ترودوليوبوف ورمقني بنظرة مهينة وقال:

- أعتقد أنك سكرت أكثر ما يجب.

وحملق زفيركوف فيّ صامتاً، متفحصاً إياي وكأنني كنت حشرة، في حين راح سيمونوف يصب الشمبانيا. ورفع ترودوليوف كأسه، وفعل ذلك الآخرون أيضاً ما عداي. وصاح ترودوليوبوف موجهاً الكلام على زفيركوف:

- نخب صحتك، ونخب سفرة ممتعة... نخب الماضي أيها السادة، المستقبل!

وافرغوا كؤوسهم في أجوافهم، واندفعوا يعانقون زفيركوف. ولم أحرك ساكناً، وكان قدحي مملوءاً أمامي، وصاح ترودوليوبوف مهدداً إياي وهو نافذ الصبر:

- ألا تريد أن تشرب؟

- أريد أن أقول شيئاً.. شيئاً خاصاً.. ثم أشرب بعد ذلك أيها السيد ترودوليوبوف.

وتمتم سيمونوف قائلاً:

- وحشية ليس فيها ذرة واحدة من الأدب أو الذوق!

ونهضت، ورفعت كأسي بيدي وأنا المحموم وكأنني كنت أعد نفسي لأمر شاذ، إلا أنني لم أكن أعرف ما كنت أريد أن أقوله. وصاح فيرفشكين:

- صمتاً! سنسمع الآن شيئاً رائعاً بالفعل!

وانتظر زفيركوف عابساً، كأنه كان يدرك النتيجة مقدماً بينما طفقت أقول:

- أيها الملازم زفيركوف، أود أن تعلم بأنني أكره العبارات الجوفاء والثرثارين.. وهذه هي النقطة الأولى التي أود إيضاحها، أما النقطة الثانية فستأتيك حالاً..

وساد الجميع قلقاً وانفعالاً ظاهرين، واستأنفت كلامي:

- النقطة الثانية أيها السادة: هي أنني أكره القصص السخيفة الكذابة وأولئك الذين يروونها، بل الذين يروونها بوجه خاص. أما النقطة الثالثة فهي أنني أحب الحقيقة والصراحة والأمانة.

ومضيت أتكلم بصورة ميكانيكية، لأنني كنت قد بدأت أتجمد رعباً، ولم أكن أدرك كيف استطعت أن أتحدث كذلك:

- إنني أحب الفكر أيها السيد زفيركوف، وأحب الصداقة الحقيقية التي يتعادل فيها الأصدقاء ولا... أجل أحب... ولكن، لماذا بحق الجحيم؟ لماذا لا؟ سأشرب نخب صحتك أنا أيضاً أيها السيد زفيركوف. إنك تفسد عذارى القوقاز وتطلق الرصاص على أعداء بلادنا و.. و.. نخب صحتك أيها السيد زفيركوف.

ونهض زفيركوف من كرسيه، وانحنى قائلاً:

- إنني مدين لك بالشكر بالتأكيد.

كان شديد الاستياء، بل إنه لاح شاحب الوجه. وزمجر ترودوليوبوف ضارباً المنضدة بقبضته بعنف:

- اللعنة.

وصرر فيرفشكين:

- كيف...؟ إن الناس يحصلون على لكمة في الأنف لكلمات مثل

وتمتم سيمونوف:

- دعونا نطرده!

أما زفيركوف فقد صاح بحدة، متخلياً عن مظهر الجنرال:

- أرجوكم أيها السادسة، لا تضيفوا كلمة أخرى، وإنني لأشكركم جميعاً، إنما أريد أن تتركوا لي أن أريه مدى قيمة كلماته بالنسبة لي.

ولكنني قلت بصوت عالٍ موجهاً الكلام إلى فيرفشكين:

- أيها السيد فيرفشكين، أعتقد أنك ستقدم لي جواباً عن كلماتك غداً صباحاً!

فأجاب فيرفشكين:

- تعني مبارزة، أليس كذلك؟ ذلك أمر يلذ لي جداً يا سيدي.

بيد أنه لا بد أنه كان أمراً مثيراً للسخرية أن أتحداه، وقد لاح الأمر كله متناقضاً في الواقع مع مظهري القزمي بحيث إن الجميع، حتى فيرفشكين، أغرقوا في الضحك. وقال ترودوليوبوف باشمئزاز:

- اتركوه وشأنه بحق السماء فإنه شديد السكر.

وتمتم سيمونوف ثانية:

- لن أغتفر لنفسي أنني وضعت اسمه في القائمة.

وقلت لنفسي: لقد حان الوقت لكي أقذفهم بقنينة، واختطفت القنينة... وملأت لنفسي كأساً أخرى. كلا، يجب أن أرى الأمر حتى نهايته. ستغتبطون لو انصرفت أيها السادة، أليس كذلك؟ ولكنني لن أذهب. آه، كلا، سأظل جالساً هنا ولن يغيرني شيء في العالم بالذهاب، وسأظل أشرب حتى النهاية لأريكم أنني لا أكترث لكم. سأظل جالساً وسأستمر على الشراب لأن هذا المحل ليس إلا باراً حقيراً، وبالإضافة إلى ذلك فقد دفعت ثمن كل شيء. سأجلس وسأشرب لأنني أؤمن بأنكم جماعة من النكرات، جماعة من النكرات البائسة التافهة. سأجلس وسأشرب - وسأغني إذا شئت. أجل سأغني لأنه، اللعنة.. لي الحق أن أغني - أجل.

ولكنني لم أغن، وإنما حاولت جاهداً ألا أنظر إليهم، بصورة مستقلة عنهم، وانتظرت في صبر أن يوجهوا الحديث إليّ أولاً. ولكنهم لم يفعلوا. وكم كنت متشوقاً - آه، كم كنت مشوقاً في تلك اللحظة إلى مصالحتهم ! ودقت الساعة ثماني دقات، ثم تسعاً وانتقلوا من المائدة إلى الأريكة، وجلس زفيركوف جلسة مريحة، واضعاً إحدى قدميه على منضدة صغيرة مستديرة. وكانوا قد أخذوا الشراب معهم، ودعا لهم زفيركوف بثلاث قناني من الشمبانيا، ولكنه لم يدعني إلى مشاركتهم بالطبع. وجلسوا جميعاً حوله على الأريكة يستمعون إليه باحترام. كان واضحاً أنهم كانوا مولعين به، ولكن لماذا؟ وكان يغلبهم السكر أحياناً فيقبل بعضهم بعضاً، وكانوا يتحدثون عن القوقاز، وعن حقيقة العاطفة، وعن بطاقات التوصية، والأعمال المريحة في الدولة، وعن دخل الفارس بودخارزفسكي الذي لم يكن أحدهم يعرفه شخصياً، وكانوا مغتبطين لأنه كان يحصل على كل ذلك الدخل، وعن جمال الأميرة د. التي لم يرها أحدهم قط، وأخيراً انتهوا إلى تقرير أن شكسبير سيظل خالداً.

كنت أبتسم باحتقار، متمشياً في الجانب الآخر من الغرفة، مقابل الأريكة مباشرة، بين المنضدة والموقد. وفعلت كل ما في وسعي أن أفعله لأريهم أنني لم أكن في حاجة إليهم، وكنت أضرب بقدمي على الأرض، وأرفع كعبي وأخفضهما، ولكن ذلك كله كان عبثاً، إذ غنم لم يكترثوا بي، بيد أنني صبرت على ذرع الغرفة أمامهم من الثامنة إلى الحادية عشرة ولم أُحِدْ عن طريقي، وإنما ظللت أتمشى بين المائدة والموقد. ها أنا أتمشى تماماً كما أشاء، ولا يستطيع أحد أن يمنعني! وكان الخادم الذي لا يفتأ يدخل الغرفة بين الحين والحين يتوقف لحظات ويحملق فيّ. وبدا رأسي يدور لكثرة ما استدرت، بل مرت بي لحظات كنت أتصور فيها أنني كنت أهذي. وتصببت عرقاً ثلاث مرات في تلك الساعات الثلاث، وجف جسدي ثلاث

مرات. وكانت في بعض الأحيان تبرق في ذهني وتتغلغل في أعماقي بأشد الألم تصورات كانت تدفعني إلى الاعتقاد بأنني سأظل طيلة عشر سنوات، أو عشرين أو أربعين سنة، أتذكر في ذلة واشمئزاز تلك اللحظات الحيوانية المفزعة المضحكة من حياتي. لقد كان مستحيلاً على أي إنسان آخر أن يحقر نفسه بصورة أشد إذلالاً وبإرادته كما فعلت أنا، وقد أدركت ذلك تماماً -تماماً- ومع ذلك مضيت أذرع الغرفة بين المائدة والموقد، والموقد والمائدة. وفكرت ثانية وثالثة، مخاطباً الأريكة التي كان أعدائي يجلسون عليها، رغم أنني ظللت صامتاً: آه لو تعرفون الأفكار والمشاعر التي أنا قادر على الشعور بها! آه لو تعرفون كم أنا ذكي. ولكن أعدائي كانوا يتصرفون وكأني لم أكن معهم في الغرفة. ولكنهم التفتوا إليّ مرة واحدة فقط حين بدأ زفيركوف يتحدث عن شكسبير، إذ إنني انطلقت ضاحكاً باحتقار. لقد ضحكت بطريقة تبعث على الاشمئزاز إلى درجة أنهم قطعوا حديثهم وطفقوا يحملون فيّ بصمت بضع لحظات عابسين، أما أنا، فقد كنت أتمشى قرب الجدار، بين المائدة والموقد، غير مكترث لهم، لكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة، إذ إنهم لم يقولوا لي شيئاً، ومرت لحظات، ثم كفوا عن الانتباه إليّ. ودقت الساعة الحادية عشرة، وصاح زفيركوف وهو ينهض من الأريكة:

- أيها السادة! دعونا نذهب جميعاً هنالك!

وصاح الجميع:

- طبعاً، طبعاً.

والتفت زفيركوف إليّ: كنت متعباً جداً، وكنت مستعداً للموت من أجل أن أضع نهاية لتعاستي. كنت محموماً، وكان شعري مبللاً بالعرق وملتصقاً بجبيني. ولكنني قلت له:

- زفيركوف، إنني آسف. فيرفشكين، وأنتم جميعاً، جميعاً: أرجو أن تسامحوني - لقد أسأت إليكم جميعاً! وفح فيرفشكين بحقد:

- آه... إنك تخاف المبارزة، أليس كذلك؟

وشعرت وكأنه ق طعنني في قلبي.

- كلا يا فيرفشكين، لست خائفاً من المبارزة، إنني مستعد لمبارزتك في الصباح إذا شئت، ولكن بعد أن نكون قد أصلحنا الأمر، أجل، إنني أصر على ذلك، ولا يمكنك أن ترفض. إنني أريد أن أريك أنني لا أخشى المبارزة: ستطلق النار أنت أولاً، ثم أطلق رصاصتي في الهواء!

وقال سيمونوف:

- إنه معجب بنفسه، أليس كذلك؟

وقال ترودولويوبف:

- أما إذا سألتموني عن رأيي، فإنني أقول إنه يتحدث من وراء قبته.

وصاح زفيركوف باحتقار:

- ابتعد عن طريقي! لماذا تقف في طريقي؟ ماذا تريد؟

كانت وجوه الجميع حمراء، وكانت عيونهم تلتمع. كانوا قد شربوا كثيراً.

- إنني أطلب صداقتكم يا زفيركوف، لقد أسأت إليك، ولكنني...

- أسأت إليّ؟ أنت أسات إليّ؟ ألا تدرك أنك لا تستطيع أن تسيء إليّ في أي ظرف؟

وأخيراً قال ترودوليوبوف:

- كفانا منك فاذهب! هيا أيها السادة، دعونا ننصرف.

وقال زفيركوف:

- ستكون أوليمبيا من نصيبي! موافقون؟

فأجابوه ضاحكين:

- موافقون! موافقون!

وجلست وأنا أشعر بمنتهى الذلة، وغادر الجميع الغرفة صاخبين معربدين، وطفق ترودوليوبوف يغني أغنية سخيفة، وتأخر سيمونوف قليلاً ليعطي الخادم بقشيشاً، واتجهت إليه مباشرة، وقلت يائساً:

- دعني أحصل على ستة روبلات يا سيمونوف!

فحملق فيّ دهشاً، وفي عينيه نظرة مضطربة. لقد كان هو أيضاً سكراناً.

- لست ذاهباً معنا هنالك، أليس كذلك؟

- بل سأفعل!

بيد أنه غادر الغرفة بعد أن قال لي باحتقار:

- لا أملك نقوداً!

إلا أنني لم أتركه يغادر الغرفة، وإنما أمسكت بمعطفه. كان الأمر كله كابوساً.

- لقد رأيت لديك نقوداً، فلماذا ترفض يا سيمونوف؟ هل أنا نذل؟ لا تفرض يا سيمونوف، فلو كنت تعرف لماذا أطلب منك ذلك! كل شيء يعتمد على ذلك، مستقبلي كله، مشاريعي كلها!

وأخرج سيمونوف النقود وقذفها في وجهي، وقال دون شفقة، وهو يندفع في طريقه للحاق به:

- خذ! إذا كنت قليل الحياء إلى هذا الحد!

وظللت وحدي بضع لحظات، كان كل شيء مضطرباً في الغرفة، بقايا العشاء، والقدح المحطم على الأرض، أعقاب السجائر، وخيالات الحمى والفوضى الضاربة أطنابها في رأسي، والألم الحاد في قلبي، وأخيراً، الخادم الذي كان قد سمع كل شيء، والذي كان يحملق في عيني بفضول. وصرخت:

- إما أن يركع على قدميه ويطلب صداقتي، أو ... أو أنني سأصفع زفيركوف!

* * *

5

وتمتمت قائلاً لنفسي وأنا أهبط السلم: هذه هي إذن -هذه هي أخيراً- هذه هي تجربة من تجارب الحياة الحقيقية، ولكن هذا مختلف جداً عن آمالك السابقة، مختلف عن مغادرة البابا روما إلى البرازيل! مختلف أيضاً عن حفلتك على ضفاف بحيرة كومو. ثم برق في ذهني أن أقول لنفسي: أنت خنزير إذا كان هذا يضحكك. ولكنني أجبت نفسي قائلاً: لا يهمني، لأنني فقدت كل شيء الآن!

ولم أجد أثراً له في الشارع، إلا أن ذلك لم يقلقني.. لأنني كنت أعرف أين ذهبوا.

كانت هنالك عند مدخل الفندق زحافة ليلية تقف منفردة، بينما كان حوذيها يرتدي معطفاً خشناً عادياً يغطيه الندى والثلج الذي كان يلوح وكأنه كان يدفئه! الثلج ما يزال يتساقط، والجو ضبابي دافئ. كان الحصان الأرقط مغطى بالثلج أيضاً، وكان يسعل. إنني أتذكر ذلك جيداً الآن. واندفعت نحو الزحافة العتيقة، وما أن رفعت قدمي لأضعها في داخلها حتى استعدت ذاكرتي كيف أن سيمونوف قد أعطاني الروبلات الستة الآن فقط. وأحسست بثقل في جسمي، وانهرت في الزحافة انهياراً كالكيس الثقيل. وصحت: آه، عليّ أن أفعل الشيء الكثير لأعوض عن ذلك كله،

ولكن عليّ أن أفعل ذلك الليلة، أو أن أموت في ذلك المكان هذه الليلة الذات. هيا أيها الحوذي!

وانطلقنا، وكانت أفكاري كالدوامة. لن يركعوا على ركبهم ليطلبوا صداقتي، وما ذلك إلا وهمٌ من أوهامي، وهمٌ تافه، رومانتيكي، وخيال مفزع - حفلة أخرى على ضفاف بحيرة كومو! ولهذا السبب وحده عليّ أن أصفع زفيركوف! يجب أن أفعل ذلك.

حسناً، لقد انتهينا من ذلك، وها أنا منطلق الآن لأصفعه! أسرع أيها الحوذي! فلوّح باللجام بعنف.

سأصفعه حالما أدخل المكان. ولكن هل يتعين عليّ أن أقول بعض الكلمات تمهيداً لصفعه؟ كلا، وإنما سأتجه إليه مباشرة وأصفعه. سيكونون جميعاً جالسين في الغرفة الواسعة، وسيكون (هو) جالساً على الأريكة مع أوليمبيا.. أوليمبيا العينة! لقد سخرت من وجهي مرة ورفضتني. سأسحب أوليمبيا من شعرها ثم أجر زفيركوف من أذنيه، الأفضل أن أجره من أذن واحدة. وسأدور به في الغرفة ساحباً إياه من أذنه، ومن المحتمل أن ينهالوا عليّ ضرباً ويطردونني، بل إن هذا أكيد. ولكنني لن أكترث، لأنني سأكون البادئ، وهذا هو كل شيء في قوانين الشرف. سيصمه ذلك مدى الحياة، ولن يكون في استطاعته أن يزيل الصفعة بضربي - كلا لن يزيلها إلا بمبارزة. سيكون واجباً علينا أن نتبارز.

أجل، ليضربونني الآن، دعهم يضربونني، أولئك الخنازير الجاحدين! إنني أتوقع أن يضربني ترودوليوبوف أكثر من الجميع.. لأنه قوي، أما فيرفشكين فسينهال عليّ من جانب واحد ويمسكني من شعري بالتأكيد - أجل، سيمسكني من شعري بالتأكيد. حسناً، ليفعل ذلك. ليفعل ذلك،

فهذا هو كل ما أريده من ذهابي. سيضطر الحمقى أخيراً على إدراك المأساة حين يدفعونني إلى الباب، لأنني سأصرخ قائلاً لهم إنهم يساوون في الواقع خنصري. أسرع أيها الحوذي!

وفوجئ الحوذي، وأعمل السوط في حصانه - لأنني كنت أصرخ بحدة: سنتبارز في الفجر، وهذا أمر أكيد. لقد انتهى أمري بالنسبة للشعبة التي أعمل فيها. لقد قال فيرفشكين في أثناء العشاء (الثعبة)، ولم يقل (الشعبة)! ولكن من أين سأحصل على المسدسات؟ هراء! سأطلب سلفة على راتبي وأشتريها. ولكن، ماذا عن البارود والرصاص؟ ليس هذا شأني، إذ على الشاهد أن يهتم بذلك، ولكن كيف سيكون في وسعي أن أفعل ذلك كله قبل الصباح؟ ومن أين سأحصل على الشاهد وأنا لا أملك صديقاً..؟

ولكنني هتفت، وأنا أشتد انفعالاً شيئاً فشيئاً: هراء، سيوافق أول رجل أسأله في الشارع أن يكون شاهدي، وسيضطر إلى ذلك اضطراره إلى إنقاذ غريق من الماء. وقد تحدث أشياء غريبة جداً، حتى لو كنت سأطلب من مدير الشعبة نفسه أن يكون شاهدي غداً فإنه سيضطر إلى القبول فوراً، على الأقل بدافع الشهامة، كما أنه سيحتفظ بالأمر سراً! أنطون أنطونوفيتش...

والحقيقة هي أنه في تلك اللحظة ذاتها كانت سخافة مشاريعي الكريهة والوجه الآخر من المسألة ظاهرتين في خيالي بوضوح شديد، أكثر من اتضاحهما لأي إنسان آخر على وجه الأرض، ولكن...

- أسرع أيها الحوذي، أسرع أيها النذل... أسرع!

فقال ابن العذاب:

- أجل... سيدي!

وهنا سرت الرعشات الباردة في جسدي. ألن يكون الأفضل أن أذهب... إلى البيت مباشرة؟ يا إلهي! يا إلهي. لماذا دعوت نفسي إلى هذا العشاء بالأمس؟ ولكن لا، فهذا مستحيل الآن، وماذا عن رواحي ومجيئي طيلة ساعات ثلاث بين المائدة والموقد؟ كلا، كلا، هم الذين سيعوضونني عن كل تلك الساعات المهينة، هم ولا أحد غيرهم! هم الذين يجب أن يزيلوا هذا العار! أسرع أيها الحوذي.

وماذا لو زجوني في السجن؟ لن يجرأوا على ذلك! لأنهم سيخشون الفضيحة. وماذا لو احتقرني زفيركوف إلى درجة أنه يرفض أن يبارزني؟ بل إنه سيفعل ذلك، وفي هذه الحالة سأريهم... سأذهب إلى محطة البريد حين يهم بالرحيل غداً، وسأمسكه من ساقه، وأخلع عنه معطفه حين يهم بدخول العربة، وسأغرز أسناني في رأسه، سأعضه. (انظروا إلى أي حد قد تدفعون برجل بائس!) وقد يضربني في رأسي، وقد يسحبني الآخرون من الخلف، ولكنني سأصيح في الناس المحتشدين: انظروا إلى هذا الجرو الذي يريد أن يذهب ليأسر فتيات القوقاز، في حين أنه سمح لي بأن أبصق في وجهه!

وسينتهي كل شيء بعد ذلك بالطبع! وستكون الدائرة في خبر كان، سيقبض عليّ وسأحاكم، وأطرد من الخدمة ويلقى بي في السجن، ثم أرسل إلى سيبيريا! لن يهمني ذلك! وسيطلق سراحي بعد خمسة عشر عاماً وأعود شحاذاً رث الثياب، وأجده في إحدى المدن، متزوجاً سعيداً، وستكون له ابنة كبيرة... سأقول له: انظر أيها الوحش إلى خديّ الغائرين وملابسي الممزقة! لقد فقدت كل شيء - المهنة والسعادة والفن والعلم والمرأة التي أحببتها، وكل ذلك بسببك. هذان مسدسان، إلا أنني جئت لأفرغ مسدسي و.... و.... سأسامحك. ثم أطلق رصاصة في الهواء، ولن يسمع بعد ذلك عني شيئاً...

كنت موشكاً على البكاء بالفعل، مع أني كنت أدرك جيداً في تلك اللحظة أن هذا كله لم يكن إلا شيئاً مما يجد المرء مثله في (سلفيو) بوشكين، (أو الحفلة التنكرية) لليرمونتوف. وهكذا شعرت فجأة بالخجل، كنت خجلاً إلى درجة أنني أوقفت الزحافة وخرجت منها، ووقفت ساكناً تحت الثلج المتساقط في منتصف الشارع. وكان الحوذي ينظر إليّ متأوهاً مستغرباً.

ماذا كان عليّ أن أفعل؟ لم يكن بوسعي أن أستمر على الذهاب إلى هناك - كان الأمر، بوضوح، الحماقة بعينها، ولم يكن بوسعي أن أترك الأمور كما هي، لأن ذلك سيلوح وكأنه... يا للسموات، كيف أترك الأمور كما هي! وبعد كل تلك الإهانات! وصحت وأنا ألقي بنفسي في الزحافة ثانية: كلا، فإن ذلك مقدر لي، إنه القدر! أسرع، أسرع!

وكان صبري قد نفذ فمضيت أضرب رقبة الحوذي من الخلف، ولكنه صرخ:

- ماذا تريد؟ لماذا تضربني؟

بيد أنه ألهب ظهر حصانه بالسوط حتى صار يرفس غضباً. كان الثلج الندي يتساقط في ندف كبيرة، ولكنني حللت أزراري غير مكترث له. لقد نسيت كل شيء آخر لأن رأيي كان قد قرّ على الصفعة، وبدأت أشعر في رعب بأن ذلك سيحدث الآن، في الحال، وأنه لا قوة هنالك يمكن أن تمنعه. وكانت مصابيح الشارع المقفر تصب نورها الشاحب الكئيب وسط الظلام الثلجي وكأنها مشاعل جنازة. وتغلغل الثلج تحت معطفي وسترتي ورباطي، وذاب هنالك. ولم ألفع نفسي - كنت قد فقدت كل شيء على أي حال.

وأخيراً وصلنا، فقفزت من الزحافة دون شعور، وارتقيت السلم، وبدأت أقرع الباب بعنف. وأخافني ما شعرت به من ضعف، خاصة في

ساقي وركبتي، وفتحوا الباب بسرعة وكأنهم كانوا يتوقعون قدومي. والواقع أن سيمونوف كان قد حذرهم وأخبرهم بأنه ربما سيحضر رجل آخر، لأن ذلك المكان كان من النوع الذي يجب أن تصله إشارة سابقة، وأن تتبع عند دخوله إجراءات معينة من باب الحذر. كان واحداً من المحلات التي تتعامل في الحاجيات النسائية، والتي منعه البوليس منذ زمن بعيد. كان في النهار دكاناً بالفعل، أما في الليل، فإن من يدخله يكون قد جاء لغرض آخر.

وسرت بسرعة وسط الدكان المظلمة حتى بلغت غرفة الاستقبال المألوفة بالنسبة لي، حيث وجدت شمعة واحدة مشتعلة، وقفت دهشاً... إذ لم يكن هنالك أحد. وسألت: أين هم؟ بيد أنهم كانوا قد تفرقوا في ذلك الوقت بالطبع. وكانت تقف أمامي امرأة ترسم على وجهها ابتسامة بلهاء، كانت المدام نفسها وكانت تعرفني من قبل. ومرت لحظات، ثم فتح الباب ودخلت امرأة أخرى.

وطفقت أذرع أرض الغرفة وكأنني لم ألاحظ شيئاً، وأعتقد أنني كنت أتحدث إلى نفسي. كنت أشعر وكأنني قد نجوت من الموت، وكنت أدرك ذلك بغبطة شديدة. لقد انتهى كل شيء. كنت سأصفعه بالفعل، كنت سأصفعه بالتأكيد، بالتأكيد! أما الآن فإنهم ليسوا هنا.. كل شيء اختفى وتغير! ونظرت حولي، ولم أكن قادراً على تمييز الوضع الذي كنت فيه. ونظرت بصورة ميكانيكية إلى الفتاة التي كانت قد دخلت الغرفة، ولمحت وجهاً طرياً شاباً فيه شيء من الشحوب. كان فيه حاجبان أسودان معتدلان، وعينان دهشتان سحرتاني في الحال. كنت سأكرهها لو كانت تبتسم. وبدأت أحاول أن أنظر إليها متقصداً وبشيء من الجهد، إذ لم أكن قد استجمعت أفكاري تماماً. كان في وجهها شيء من البساطة والطيبة،

شيء رصين نوعاً ما، وأنني متأكد من أن ذلك لم يكن في مصلحتها في ذلك المكان، ولهذا لم يكترث لها واحد من أولئك الحمقى. ولم يكن أحد يعتقد أنها كانت جميلة، رغم أنها كانت طويلة القامة نفاذة النظرات متناسقة التقاطيع، وكانت ثيابها عادية. وثار في جسدي إحساس عنيف، فاتجهت إليها مباشرة.

وصادف أن نظرت إلى المرآة فرأيت وجهي يلوح كريهاً جداً بما كان فيه من قلق وشحوب وغضب وتعاسة، وكان شعري مشوشاً. ولكنني قلت لنفسي: ذلك لا يهم. بل إنني لمغتبط بذلك، مغتبط بأن ألوح لها كريهاً، لأنني أحب أن ألوح لها كذلك.

* * *

6

وفجأة بدأت ساعة معلقة في مكان ما خلف الفاصل تئن وكأن شيئاً كان يضغط عليها، أو كأن أحداً كان يخنقها، ثم تلاشى ذلك الأنين الشاذ، وفوجئت بصوت آخر سريع شاذ لا تستسغيه الأذن، وكأن الساعة قد قفزت فجأة إلى الأمام، ثم دقت معلنة الثانية. فانتبهت إلى نفسي، رغم أنني لم أكن نائماً بالفعل، وإنما كنت مضطجعاً في شيء من الذهول.

كان سقف الغرفة الصغيرة الضيقة منخفضاً، وكان فيها دولاب كبير وصناديق كثيرة وملابس ومفارش من مختلف الأنواع، وكانت شديدة الظلام. ولم تكن هناك إلا شمعة واحدة موضوعة على منضدة في الناحية الأخرى من الغرفة، وكانت ذبالتها في الرمق الأخير، تتألق بين الحين والحين ثم تخبو، وكان واضحاً أنها ستنطفئ بعد قليل لتترك الغرفة في ظلام دامس. ولم يتطلب الأمر مني كثيراً لأستعيد إدراكي: إذ ومض كل شيء في ذهني بسرعة البرق، دون أي مجهود. وكأن الأمور كانت تنتظر الفرصة المناسبة لتتضح لي فجأة من جديد. بل إنني كنت أشعر، حين كنت نائماً، بمركز معين في ذاكرتي لم أنسه قط، وإنما كانت أحلامي الغافية تدور حوله في تهالك وإعياء. بيد أن المشكلة هي أن كل ما حدث لي في اليوم السابق كان يلوح لي في ذلك الحين بعد أن استيقظت، وكأنه قد حدث منذ زمن بعيد جداً، ونسيته منذ دهر طويل.

كنت أشعر بثقل في رأسي، وبشيء يجثم فوق صدري مثيراً إياي، باعثاً في نفسي الانفعال والقلق. كان الاستياء واليأس قد عادا إلى التدفق في أعماقي باحثين عن مخرج. وفجأة لمحت بالقرب مني عينين واسعتين ترقبانني باهتمام وفضول. كانت نظر تينك العينين تتميز بلا اكتراث بارد وبشيء من الكآبة، كأنها كانت بعيدة عني تماماً، حتى لقد جعلتني أشعر بضيق شديد مرعب.

وسيطرت على ذهني فكرة مفزعة طفقت تسري في جسدي كله كالإحساس المهيمن الذي يعتريك حين تدخل قبواً رطباً عفناً. ولاح لي أمراً غريباً أن تتفحصني هاتان العينان الآن فقط. وتذكرت أيضاً أنني لم أقل شيئاً طيلة ساعتين كاملتين لهذه المخلوقة، وإنني لم أكن أجد حديثي معها أمراً ضرورياً، وأعجبني ذلك لسبب ما. بيد أنني رأيت الآن بوضوح تفاهة وحقارة الخطيئة التي تبدأ حيث يجد الحب الحقيقي الخالص وسيلته للظهور واضحاً. وطفقنا ننظر إلى بعضنا هكذا وقتاً طويلاً، ولكنها لم تخفض عينيها أمام عيني ولم تغير شيئاً من التعبير الذي كان يلوح فيهما، ولذلك فقد جعلتني في النهاية أشعر بالانكماش لسبب ما.

وسألتها فجأة وأنا أبغي أن أضع حداً لذلك الموقف المتأزم:

- ما اسمكِ؟

فقالت هامسة، دون أن تبذل أية محاولة رضائي:

- ليزا...

ثم ابتعدت عينها عني وكأنني كنت أتحدث إلى نفسي، واضعاً ساعدي تحت رأسي ومحملقاً في السقف:

- كان الطقس فظيعاً بالأمس - لج - مفزع !

ولم نجب. كان كل شيء يبعث على الاشمئزاز. ومرت دقيقة أخرى من الصمت ثم سألتها غاضباً وأنا ألتفت إليها قائلاً:

- هل ولدت هنا؟

- كلا.

- من أين جئت إذن؟

- فأجابت كارهة:

- من ريغا.

- ألمانية؟

- كلا، إنها روسية

- وهل أنت هنا من زمن طويل؟

- أين؟

- في هذا البيت.

- منذ أسبوعين.

وكان حديثها يزداد اقتضاباً، وانطفأت الشمعة، ولم يعد في وسعي أن أرى وجهها.

- ألديك أقرباء؟

- كلا - أجل - لدي.

- وأين هم؟

- هناك.. في ريغا.

- ومن هم؟

- أوه...

- أوه..؟ ماذا تعنين؟ من هم؟ وماذا هم؟

- تجار.

- وهل عشتِ معهم طيلة الوقت؟

- أجل.

- كم عمركِ؟:

- عشرون.

- لماذا تركتِهم؟

- أوه...

كانت هذه الـ (أوه..) تعني: اتركني وشأني، فقد سئمت.

وصمتنا.

الله وحده يعرف لماذا لم أذهب. وبدأت أشعر بمزيد من الكآبة والأسى، وكانت حوادث اليوم الماضي تمر في ذهني مبتورة، كانت تمر في ذهني من تلقاء ذاتها دون أن أبذل مجهوداً في ذلك. وفجأة تذكرت شيئاً كنت قد رأيته في الشارع ذلك الصباح حين كنت مسرعاً إلى الدائرة في قلق.

وصحت بصوت عالٍ، وبصورة عرضية: دون أن تكون لي رغبة في الحديث:

- لقد رأيتهم بالأمس يحملون تابوتاً، وكاد يسقط من أيديهم.

- تابوت؟

- أجل، في سوق القش، وكانوا يخرجونه من قبو.

- من قبو؟

- حسناً، ليس قبواً بالضبط، وإنما من الطابق الأسفل - كما تعرفين- من مكان منخفض - في بيت خرب.

وكنت القذارة موجودة في كل مكان - زبل، ومزق وحطام - ورائحة عفنة - أوه، لقد كان مفزعاً. سكون.

واستأنفت الحديث، لا لشيء إلا لأنني لم أشأ أن أظل صامتاً:

- لقد كان يوماً كريهاً بالنسبة لجنازة.

- لماذا كان كريهاً؟

فقلت متثائباً:

- الثلج... والوحل...

ومرت دقيقة من الصمت ثم قالت فجأة:

- وماذا في ذلك؟

- كلا، لقد كان مفزعاً... (وتثاءبت ثانية)... وأعتقد أن حفاري القبر كانوا يسبون ويلعنون لأن الثلج كان يبللهم، ولا بد أن الماء نفذ إلى القبر أيضاً.

فقالت متسائلة في فضول، رغم أنها كانت تتحدث باقتضاب وخشونة:

- ولماذا ينفذ الماء إلى القبر؟

وانبعث في أعماقي شعور غريب دفعني إلى مواصلة الحديث:

- بالطبع كان هنالك ماء في القبر. كان ارتفاع الماء قدماً في القعر وليس في وسعك أن تحفري قبراً جافاً في مقبرة فولكوفر.

- أوه، ولماذا لا..؟

- ماذا تعنين؟ إن المكان كله عبارة عن مستنقع، مستنقع في كل شبر منه، وقد رأيته بنفسي عدة مرات. (لم أكن قد رأيت المكان، ولم أذهب إلى مقبرة فولكوفر قط، بيد أنني سمعت الناس يقولون ذلك).

- ألا تكترثين للأمر، أعني للموت؟

فأجابت وكأنها كانت تدافع عن نفسها:

- ولكن، لماذا أموت؟

- ستموتين يوماً كما تعلمين، وأظن أنك ستموتين تماماً كما ماتت الفتاة التي رأيت تابوتها بالأمس، فقد كانت هي أيضاً فتاة مثلك، وقد ماتت بالسل.

فقالت:

- كان في استطاعة البغي أن تموت في المستشفى أيضاً.

فقلت في نفسي: إنها تعرف كل شيء عن الأمر، وقد قالت البغي، ولم تقل الفتاة.

وأجبت وأنا أشعر بانفعال أشد من جراء النقاش:

- لقد كانت مدينة للمرأة التي كانت عمل عندها، وقد ظلت تعمل عندها حتى النهاية، رغم أنها ماتت مسلولة. وكان سائقو العربات يتحدثون عنها مع بعض الجنود في الشارع، وقد أخبروهم بذلك. كانوا يتضاحكون، وقد وعدوا بأن يشربوا بعض الكؤوس لذكراها في البار. (كان معظم هذا من اختراعي).

سكون، سكون عميق، بل إنها لم تتحرك قط.

ثم قالت متسائلة بشيء من القلق:

- أتعتقد بأن من الأفضل أن يموت المرء في المستشفى؟ ما الفرق؟ ولماذا يتعين عليّ أن أموت؟

- إن لم يكن الآن، فعما قريب..

- عما قريب..؟ أوه.. حسناً.

- لا تكوني واثقة من نفسك إلى هذا الحد! أنت الآن شابة وجميلة وطريدة، ولهذا فإنهم يعلقون عليك كل هذه الأهمية، ولكن الأمر سيكون مختلفاً جداً بعد عام واحد تقتضينه في مثل هذه الحالة. ستفقدين نضارتك.

- بعد عام؟

فمضيت أضيف بشيء من اللوم:

- حسناً، سيقل سعرك بعد عام واحد على كل حال، وستجدين نفسك في مكان أحقر في بيت آخر، وتمر سنة أخرى.. في بيت ثالث، أشد حقارة. وبعد سبع سنين ستذهبين إلى ذلك القبو في سوق القش. ولن يكون ذلك مفزعاً، ولكنك تعرفين أن المشكلة هي أنك قد تمرضين -

ضعف في الصدر مثلاً - أو تصابين بالبرد، أو أي شيء آخر، وليس من السهل عليك أن قاومي المرض وأنت تعيشين مثل هذه الحياة. وهكذا فما أن تمرضي حتى يكون شفاؤك صعباً جداً، وتموتين.

فأتت بحركة سريعة، وقالت في حد:

- حسناً، سأموت هكذا.

- ولكن ألا تأسفين؟

- آسف..؟ لماذا؟

- لحياتك؟

صمت.

- لقد كنت مخطوبة لتتزوجي، أليس كذلك؟

- لماذا لا تهتم بشؤونك؟

- آسف، لست أريد أن أحرجك. يا للجحيم، ما الذي يهمني من ذلك؟ ولماذا أنت غاضبة هكذا؟ إنني أتوقع أن تصادفك كل أنواع المتاعب، وليس هذا من شأني بالطبع، إلا أنني لا أملك إلا أن آسف، وهذا هو كل ما في الأمر.

- تأسف لمن؟

- آسف لك.

فتململت ثانيةً وهمست بصوت غير مسموع تقريباً:

- إنني لا أستحق ذلك.

وأثارني هذا. يا للـمـوات، لقد كنت لطيفاً معها ولكنها...

- حسناً، ما الذي تعتقدين؟ أتظنين أنك تسيرين في الطريق الصحيح؟

- لست أظن أي شيء.

- هذه هي المشكلة معك. أنت لا تفكرين. ولكن يمكنك أن تستعيدي إدراكك ما دام في الوقت متسع. أنت ما تزالين شابة جميلة، وقد تحبين أحداً وتتزوجين وتكونين سعيدة...

ولكنها عادت إلى اقتضابها وخشونتها وقالت:

- ليست كل المتزوجات سعيدات.

- لماذا، طبعاً لا. ولكن ذلك أفضل من البقاء هنا على كل حال، أفضل مائة مرة، لأنك إذا أحببت فإنك تستطيعين أن تعيشي بلا سعادة. إن الحياة عذبة حتى في الشقاء، ومن الأفضل أن يكون الإنسان على قيد الحياة، مهما كانت الحياة قاسية. وماذا لديك الآن؟ لا شيء غير الشر.. تفو!

وأدركت وجهي باشمئزاز، إذ لم أعد أفكر في برود، وإنما صرت أنا نفسي أتدفق بالانفعال بتأثير الكلمات التي كنت أقولها. كنت أريد أن أوضح الأفكار الصغيرة التي كنت أميل إليها، والتي كنت أفكر فيها طيلة الفترة التي قضيتاه في زاوية الخوف التي كنت فيها. وفجأة انبعث في ذهني شيء، واتضح لي هدف ما، فقلت:

- لا تكترثي لي، أعني لا تكترثي لوجودي هنا، إذ إنني لا أصلح مثالاً لك، بل قد أكون أسوأ منك. وعلى كل حال فقد كنت سكران حين جئت إلى هنا. (كنت أريد أن أدافع عن نفسي)، وبالإضافة إلى ذلك فإن

الرجل لا يصلح مثالاً للمرأة لأنه مختلف عنها. ومهما كنت أقود نفسي إلى الانحطاط والرذيلة فإنني لن أكون عبداً لأحد، إنني هنا الآن، ولكنني سأذهب عن قريب، ولن تري وجهي ثانية. ويمكنني أن أنسى هذا كله وأصبح رجلاً مختلفاً. أما أنت.. إنك مستعبدة منذ البداية، أجل مستعبْدة! وقد سلمت كل شيء، كل حريتك. ولو أردت يوماً أن تحطمي قيودك، فلن يكون في وسعك أن تفعلي ذلك.. وإنما ستزيدين إغراقاً فيها، فهذه هي ميزة قيودك اللعينة! وإنني أعرف ذلك جيداً. ولست أذكر لك شيئاً آخر، لأنني لا أعتقد أنك تفهمين. أخبريني: هل أنت مدينة بشيء من النقود للمرأة التي تستخدمك؟ إنك مدينة لها، أليس كذلك؟ آه، ها أنت!

ولم تجب بشيء، وإنما كانت تستمع إليّ بصمت، وبكل كيانها.

- وهكذا، فهذا هو قيدك، ولن يكون في وسعك أن تدفعي دينك، لأنهم سيمنعونك من ذلك. ولا يختلف هذا عن بيع الروح إلى الشيطان! وبالإضافة إلى ذلك فإنني لا أقل عنك بؤساً وإغراقاً في القذارة عن قصد - لأنني أنا أيضاً أشعر بالضيق- إن الناس يتعودون على الشراب لأنهم ليسوا سعداء. أليس كذلك؟ حسناً، أنا أيضا هنا لأنني لست سعيداً. والآن أخبريني: أي خير في هذا كله؟ لقد كنا متلاصقين معاً -منذ بضع ساعات- ولم نقل كلمة واحدة طيلة الوقت، ولم تنظري إليّ إلا بعد ذلك، وكذلك فعلت أنا. فهل هذه هي الطريقة التي يحب الناس بها بعضهم بعضاً؟ وهل هذا هو ما يجب أن يفعله البشر حين يحبون؟ إنه أمر يبعث على الاشمئزاز، أجل، إنه لكذلك.

فقالت بحدة، وبصورة تلقائية:

- أجل !

وأدهشتني التلقائية التي ردّت بها، ولعل ذلك خطر بباله أيضاً حين كانت تنظر إليّ عامدة. كانت هي أيضاً قادرة على التفكير في مثل هذا إذن. وفكرت في نفسي قائلاً: اللعنة، هذا أمر بديع - وهو يعني أننا متقاربان فيما بيننا، وكنت أفرك راحتي في غبطة شديدة. وكيف لا يكون في وسعي أن أتفق مع مخلوقة شابة كهذه؟ كل ما أعجبني في الأمر كله أنه صار يبعث على التسلية.

وأدارت وجهها نحوي -أو أن هذا ما لاح لي في الظلام- وكانت تسند رأسه على ذراعها، ولعلها كانت تتفحصني، وكم أسفت لأنه لم يكن باستطاعتي أن أرى عينيها، وإنما كنت أحس بأنفاسها. وسألتها بصوت فيه شيء من السيطرة:

- لماذا جئت إلى هنا؟

- أوه...

- كان من الأفضل لك أن تبقي في بيت أبيك، أليس كذلك؟ دافئة، حرة - في بيتك الخاص؟

- وماذا لو كان الأمر هنالك أسوأ بكثير منه هنا؟

وفكرت في نفسي قائلاً: يجب أن أجد الحقيقة، ولن يكون في وسعي أن أعرف ذلك إذا تركت عاطفتي تغلب عليّ. ولكن تلك كانت فكرة عابرة، لأنها كانت قد اجتذبت اهتمامي بالتأكيد، وبالإضافة إلى ذلك فقد بدأت أشعر بالإرهاق والانفعال، كما أن الخداع يمكن أن يرتدي ثوب الشعور الحقيقي بسهولة.

وقلت مجيباً:

- لست أشك في ذلك لحظة واحدة، فكل شيء محتمل، وأعتقد أن أحدهم قد فعل بك شراً، وقد كان الخطأ راجعاً إليه وحده. وبالرغم من أنني لا أعرف شيئاً من تفاصيل قصتك، إلا أنه من الواضح أن فتاة مثلك لن تأتي إلى هنا برغبتها، أليس كذلك؟

فتمتمت قائلة بصوت يكاد يكون غير مسموع، رغم أنني سمعت ما قالت:

- ومن أي نوع من الفتيات أنا؟

اللعنة ! لقد كنت أثير زهوها! كان ذلك مخيفاً، ولكن، لعله لم يكن كذلك، لعله كان صحيحاً.. كانت هي صامتة.

- انظري يا ليزا، سأخبرك بشيء عن نفسي. لو كان لي بيت حين كنت طفلاً، لما صرت هكذا الآن. وإنني غالباً ما أفكر في ذلك، لأنه مهما كانت حياة العائلة سيئة فإن أباك وأمك ليسا من أعدائك، أليس كذلك؟ وهما يظهران حبهما لك ولو مرة في السنة، وإنك لتشعرين بأنك في البيت، مهما كان الأمر سيئاً. بيد أنني نشأت دون أن يكون لي بيت، ولهذا فقد وصلت إلى ما وصلت إليه - رجل بلا شعور...

وانتظرت منها جواباً أيضاً.

وقلت في نفسي: لا أعتقد أنها تفهم شيئاً من حديثي، وبالإضافة إلى هذا، فإن مواعظي كلها تبدو مضحكة! وقلت بصورة غير مباشرة، وكأنني لم أكد أريد أن أستدرجها إلى الحديث، وأعترف بأنني احمررت خجلاً:

- لو كنت أباً ولو كانت عندي ابنة، فإنني أعتقد بأنني سأحب ابنتي أكثر من أبنائي - سأفعل ذلك حقاً !

فسألتني:

- ولكن لماذا؟

أوه، لقد كانت تستمع إليّ !

- فقط - حسناً، لا أعرف بالضبط يا ليزا. لقد عرفت رجلاً كان أباً، وكان متصلباً جداً، لقد كان متشدداً عابساً، ولكنه كان يركع على ركبتيه لابنته ويقبّل يديها وقدميها، ولم يكن ليمل من رؤيتها، أجل، وكانت تنفق الليل وهي ترقص في الحفلات، وكان يقف خمس ساعات في مكان واحد دون أن يرفع عينه عنها.

لقد كان حولها دائماً. ويمكنني أن أفهم هذا. ويتملكها التعب في الليل فتنام، ويذهب هو ويقبّلها وهي نائمة يرسم فوقها علامة الصليب. وقد كان نحيلاً جداً في كل شيء، وكان يرتدي سترة قذرة، غير أنه كان ينفق عليها بلا حساب ويشتري لها أغلى الهدايا ويغتبط أشد الغبطة إذا سرها ذلك. إن الآباء يحبون بناتهم أكثر مما تفعل الأمهات، وكثيرات من الفتيات يتمتعن بحياتهن في بيوتهن، ولست أعتقد أنني سأوافق أن تتزوج ابنتي، لو كانت لي ابنة!

فسألتني بابتسامة شاحبة:

- ولماذا لا توافق؟

- لأنني سأغار عليها، أجل سأغار عليها، أعني أنني سأكره التفكير في أن يقبّلها أحد غيري وأن تحب شخصاً غريباً عن أبيها. بل إن مجرد التفكير في ذلك سيؤلمني. هذا كله سخف بالطبع، ولا بد أن يعود كل واحد على صوابه في النهاية، بيد أني أخشى أن أموت عذاباً قبل أن أسمح لها بالزواج.

وسأحاول بالتأكيد أن أجد وسيلة لرد كل من يتقدم لخطبتها، لكنني أجرؤ أن أقول إنني أسمح لها في النهاية أن تتزوج من تحب، لأن الأب غالباً ما ينظر إلى الرجل الذي تحبه ابنته باعتباره أسوأ الجميع، وهذا هو ما يسبب كثيراً من المتاعب في الحياة العائلية.

فقالت فجأة:

- إن بعض الآباء والأمهات يسعدهم أن يبيعوا بناتهم، لا أن يزوجوهن بشرف وحسب.

أوه، لقد كان الأمر كذلك إذن!

- إن ذلك لا يحدث إلا في العوائل المنحطة يا ليزا، حيث لا يوجد إله ولا حب...

ثم أضافت بحرارة:

- وإذا انعدم الحب انعدمت الكرامة وهنالك مثل هذه العوائل بالفعل، ولكنني لا أتحدث عنها الآن، ولست أعتقد أنك وجدت شيئاً من العطف في عائلتك إذا كنت تتحدثين هكذا. ولا بد أنك كنت سيئة الحظ جداً. أجل، أعتقد أن هذا يحدث بسبب الفقر.

- ولكن، هل الأمر أفضل في العوائل الغنية؟

- إن الشرفاء يعيشون في سعادة حتى ولو كانوا فقراء.

- أجل، أعتقد أن ذلك صحيح.

- إن الإنسان يا ليزا لا يتذكر إلا مصائبه، وهو لا يتذكر شيئاً من الأيام التي يكون فيها محظوظاً ولو تذكر ذلك لأدرك أنه قد كان له نصيب

كبير من ذلك أيضاً. ولكن، ماذا لو سارت الأمور سيراً حسناً بصورة دائمة؟ لو شاءت العناية الإلهية أن يكون زوجك رجلاً صالحاً يحبك ويرعاك ولا يتركك لحظة واحدة! أوه، مثل هذه العائلة تكون سعيدة حقاً! وحتى لو لم تسر الأمور سيراً حسناً في بعض الأحيان فإن كل شيء يبقى حسناً مع ذلك، هل يخلو شيء من الحزن؟ ولو كنت تزوجت لعرفت ذلك بنفسك، ولو تذكرت السنوات الأولى من زواجك بالرجل الذي تحبينه - أوه، أية سعادة، أية سعادة في ذلك أحياناً! لماذا، إنها تجربة مألوفة عند الجميع. بل إن خلافاتك الأولى مع زوجك تنتهي بسعادة أيضاً وهنالك عدد كبير من الزوجات اللواتي كلما ازددت حباً لأزواجهن زادت خلافاتهن معهم، بل إنني عرفت امرأة من هذا النوع كانت تقول لزوجها: إنني أحبك كثيراً، وإنني أعذبك، لا لشيء إلا لأنني أحبك كثيراً، وعليك أن تدرك ذلك! أتعرفين يا ليزا أن الإنسان قد يعذب الإنسان لمجرد أنه يحبه؟ إن النساء غالباً ما يفعلن ذلك، وهن يقلن لأنفسهن: سأحبه كثيراً وأرعاه بعد ذلك أشد رعاية، ولذلك فلا يهمني الآن أن أعذبه قليلاً. وهكذا يا ليزا فكل شيء في البيت ينظر إليك في سعادة، كل شيء بديع، جميل، هادئ، شريف.. هنالك طبعاً بعض النساء اللواتي يغرن على أزواجهن، ولو خرج زوج واحدة منهم إلى مكان ما (وقد عرفت امرأة من هذا النوع)، فإنها لا تستقر ولا تشعر بالسعادة حتى تخرج من البيت في الليل وتكتشف مكانه وتعرف إن كان في ذلك البيت أو مع تلك المرأة. وهذا أمر سيء، سيء جداً، كما أنها هي أيضاً تعرف أنه خطأ، ويخونها قلبه، وتقاسي من أشد الغصص، ولكنك ترين أنها تحبه. كل شيء هو بسبب الحب. وكم يكون الأمر رائعاً إذا انتهى واعترفت بعد ذلك بأنها كانت مخطئة، أو إذا سامحته! وكم سيكونان سعيدين فجأة، سعيدين إلى درجة أنهما سيلوحان وكأنهم التقيا لأول مرة،

كأنهما قد تزوجا تواً، كأنهم قد أحبا بعضهما في تلك اللحظة. ولا يستطيع أحد أن يعرف ما يدور بين الزوج والزوجة، لو كان أحدهما يحب الآخر. ومهما اختلفا فليس لأي واحد منهما أن يدعو أمه لتفصل بينهما، وليس لأحدهما أن يتحدث عن الآخر، لأنهما يجب أن يحكما لنفسيهما، أن الحب سر غامض لا يفهمه إلا الله، ويجب أن يظل خفياً عن الأعيان مهما حدث، وإذا تم ذلك فإنه يكون أفضل وأشد قدسية، وسيحترم أحدهما الآخر، بل إن الكثير يتوقف على احترام أحدهما للآخر، وما أن يتحابا، وما أن يتزوجا على أساس ذلك الحب، فلا سبب هنالك يدعو إلى زواله، وإنما باستطاعتهما أن يحفظا عليه بالتأكيد، نادراً ما يصعب الاحتفاظ بالحب. وإذا كان الزوج طيباً شريفاً فلمت أجد ما يدعو إلى زوال الحب. صحيح أنهما لن يحب أحدهما الآخر كما كانا يفعلان حين تزوجا، إلا أن حبهما سيكون أفضل بعد ذلك، لأنهما سيتحدان بالروح بعد أن اتحدا بالجسد. وسيشتركان في تصريف أمورهما، ولن تكون هنالك أسرار بينهما - المهم أن يحب الإنسان، وأن تكون لديه الشجاعة. وفي مثل هذه الظروف يكون العمل الشاق نفسه ملذاً، وسيلذ لك أيضاً أن تجوعي أحياناً من أجل أطفالك، لأنهم سيحبوك بسبب ذلك، فكأنك تدخرين كنوزاً لنفسك.. وكلما كبر الأطفال شعرت بأنك أصبحت شعاراً لهم وأنك عونهم الوحيد وأنك حتى إذا مت، فإن أفكارك ومشاعرك ستعيش معهم لأنهم أخذوها عنك لأنهم يشبهونك في كل شيء. هو إذن واجب، واجب عظيم، وليس في وسع الأب والأم إلا أن يقترب أحدهما من الآخر شيئاً فشيئاً. ويقول الناس إن الأطفال يسببون المتاعب، ولكن، من الذي يقول ذلك؟ إن الأطفال يمثلون أعظم سعادة يمكن أن يحصل عليها الناس في هذه الأرض! أتميلين إلى الأطفال الصغار يا ليزا؟ إنني أميل إليهم كثيراً.

تصوري فقط طفلاً مورداً يرضع من ثديك - أي رجل لا يؤثر فيه منظر زوجته وهي ترضع طفله؟ أوه، مثل هذا الطفل المورد المتفتح إنه يعبث ويحبب نفسه لك... يداه الصغيرتان الحمراوان، وأظافره الدقيقة النظيفة - الدقيقة جداً بحيث يضحكك أن تنظري إليها، وعيناه اللتان تنظران إليك وكأنه يفهم كل شيء، وبينما هو يرضع، فإنه يعبث بثديك بيديه الصغيرتين الحبيبتين - يلعب. وإذ اقترب أبوه فقد يترك ثديك، ويلقي برأسه إلى الخلف، ينظر إلى أبيه ويضحك، والعناية الإلهية وحدها تعرف كم هو أمر مضحك بالنسبة إليه - ثم يعود إلى ثديك ويرضع من جديد بنهم شديد. فإذا ظهرت أسنانه فإنه قد يعض على ثدي أمه، ناظراً إليها بشيء من الخبث، وكأنه يقول: انظري، إنني أعضك! ألا يوحي كل هذا بالسعادة، حين يكون الثلاثة - الزوج والزوجة والطفل معاً؟ إن الإنسان ليغتفر كل شيء من أجل هذه اللحظات. أجل يا ليزا، إن على الإنسان أن يتعلم كيف يعيش أولاً، قبل أن يلوم الآخرين.

وقلت في نفسي: يستطيع بالصور، بصور مثل هذه، أن تخادعها. وبرغم ذلك فالله يعلم بأنني كنت أتحدث بشعور حقيقي. واحمرّ وجهي فجأة، وأضفت قائلاً لنفسي: ماذا لو انفجرت ضاحكة؟ أي حمار سأكون حينذاك! وأغضبني هذا الخاطر، وكنت قد انفعلت جداً حين انتهيت من كلامي ذاك، أما الآن فقد بدأت أشعر بأن كبريائي قد جُرح، وشعرت بأنني كنت ألامسها.

- ما الذي ...؟

ولكنها كفت فجأة عن إنهاء عبارتها، بيد أنني فهمت كل شيء: كانت في صوتها نغمة مختلفة، نغمة راعشة، ولم يعد في صوتها شيء من

الخشونة والعنف والتحدي الذي كان فيه من قبل، وإنما كان في صوتها شيء رقيق خجول، بحيث إنني خجلت من نفسي فجأة وشعرت بالجرم. وسألتها في فضول:

– ماذا؟

– لماذا، إنك...

– ماذا؟

– لماذا، إنك... إنك تتحدث وكأنك تقرأ في كتاب. وشعرت بأنها كانت تسخر مني، واشمأزت نفسي من تلك الملاحظة الأخيرة، وشعرت بأن ذلك لم يكن ما كنت أتوقعه.

ولكنني لم أدرك أنها تتقصد تلك السخرية لتخفي مشاعرها.

وإن ذلك هو آخر ما يفعله الناس الطيبون الأتقياء ضد أولئك الذين يحاولون دون احتشام ولا أدب أن يتلصصوا داخل أذهانهم، لم أدرك أن هؤلاء الناس لا يستسلمون، بدافع الكبرياء، إلا في اللحظة الأخيرة، وأنهم يخشون أن يظهروا مشاعرهم أمام الآخرين. وكان عليّ أن أدرك ذلك من المحاولات المتعثرة الكثيرة التي بذلتها لتلقي بسخريتها تلك، ومن الطريقة الخجولة التي قالتها بها بعد ذلك. ولكنني لم أدرك ذلك، وإنما غلب عليّ شعور بالحقد، وقلت في نفسي: انتظري إذن؟

* * *

7

- يا للسماوات! في أي كتاب أقرأ هذا كله؟ إنني لا أجد ما يدعوني إلى الاهتمام بما يحدث لك، بل إنني نفسي أشعر بالسأم ومع ذلك فالحق أنني أهتم بأمرك. لقد استيقظت الآن على السأم يملأ قلبي - وأنتِ أيضاً بالتأكيد لا بد قد سئمت من وجودك هنا أشد السأم، هذا إن لم تكن العادة قادرة بالفعل على أن تصل بالإنسان إلى هذا الحد.

أجل، تستطيع العادة أن تجعل من الإنسان كل شيء! أتعتقدين حقاً أنك لن تهرمي، وأنك ستحتفظين بجمالك، وأنهم سيبقونك هنا إلى الأبد؟ هذا إذا أردنا أن نغض النظر عن قذارة حياتك هنا. وعلى كل حال، دعيني أخبرك بشيء عن طبيعة الأمور هنا وعن حياتك الحاضرة بالرغم من أنك الآن جميلة، جذابة، ساحرة، حساسة، تنبضين بشيء من العاطفة. حسناً، إنك تعرفين أنني شعرت في اللحظة التي استيقظت فيها منذ دقائق الاشمئزاز من وجودي هنا! ولا يأتي المرء إلى مثل هذا المكان إلا إذا كان سكران. ولو كنت في أي مكان آخر، ولو كنت تعيشين كما يعيش الناس الشرفاء الطيبون، فلن أعجب بك وحسب، وإنما سأغرق حتى أذني في حبك، وسيملأني بالغبطة أن تنظري إليّ فقط، فضلاً عن أن تتحدثي معي. وكنت سأحوم حول بابك وأركع على ركبتي أمامك وأكون أسعد الناس لو قبلت بي زوجاً، وكنت سأعتبر ذلك شرفاً تسبغينه عليّ. لو كان الأمر كذلك لما جرؤت على التفكير بأي شيء لا يليق بك.

إلا أنني هنا أعترف بأن الأمر مختلف جداً، إذ كل ما يتعين عليّ أن أفعله هو أن أصفر فتاتين لإرضائي سواء كنت راغبة أو كارهة، وسيكون عليك أنت أن تطيعي رغباتي، بدلاً من طاعتي لرغباتي. بل إن أحقر فلاح لا يدع أحداً يستعبده مهما كان يعمل أجيراً عند الآخرين، كما أن الفلاح يعرف أنه سيكون سيد نفسه في اليوم الفلاني، فهل تستطيعين أن تقولي ذلك لنفسك أيضاً؟ فكري فقط في الأمور التي تتخلّين عنها هنا. أي شيء فيك يخضع للعبودية؟ إنها روحك، روحك التي لا يمكنك أن تسيطري عليها، بالإضافة إلى جسدك! إنك تهبين الحب لأي سكير ليسخر منه! الحب؟ إن الحب هو كل شي، إنه جوهرة غالية، وهو أعز كنوز الفتاة - أجل إن الحب لكذلك! إن الرجل ليهب روحه من أجل هذا الحب، ويواجه الموت من أجله! فما هي قيمة حبك الآن؟ إن الناس يستطيعون أن يشتروك تماماً، يشتروك كلك! ولماذا يحاول أحد أن ينال حبك إذا كان يستطيع أن يحصل على كل شيء دون حاجة إلى هذا الحب؟ ليست هناك إهانة أشد من هذه الفتاة. ألا ترين ذلك؟ لقد قيل لي إن أولئك الحمقى يسمحون لك أن تحبي. ولكن، يا الله، إنهم يهينونكِ بذلك؟ بل يخدعوك ويضحكون منك، في حين أنك تصدقينهم! أم أنك تعتقدين بأن عاشقك يحبك حقاً؟ كيف يحبك إذا كان يعرف جيداً أن كل إنسان يستطيع أن ينالك في أية لحظة؟ لن يكون أكثر من قواد في هذه الحالة! وهل يكون عند مثل هذا الإنسان أي احترام لك؟ وما الذي يجمع بينك وبينه؟ فهو إنما يضحك منك ويغلبك في هذه الصفقة - وهذا هو كل ما يعنيه حبه. بل إنك محظوظة إذا لم يكن يضربك، ولعله يفعل ذلك أيضاً. سليه، إذا كان لديك مثل هذا العاشق، إن كان يريد أن يتزوجك، إنه سيسخر منك، إن لم يبصق في وجهك ولم يصفعك، في حين أنه هو نفسه لا يساوي شيئاً. ولماذا تدمرين حياتك هنا؟

ولأجل ماذا؟ أمن أجل القهوة التي يسقونك إياها؟ من أجل الوجبات اللذيذة؟ وهل فكرت يوماً لماذا يطعمونك جيداً هنا؟

إن امرأة أخرى، امرأة شريفة، لا تستطيع أن تزدرد مثل هذا لطعام لأنها تعرف جيداً لماذا يطعمونها إياه. إنك مدينة هنا.

- ولك أن تثقي بي إذا قلت لك إنه لن يكون في وسعك سداد هذا الدين، وستظلين مدينة حتى النهاية، حتى يبدأ الرجال الذين يأتون هنا بالسخرية منك!

سيحدث كل هذا بأسرع مما تتصورين، فلا تعتمدي كثيراً على مظهرك الجميل لأنه لن يبقى طويلاً هنا كما تعلمين. وحينذاك سيطردونك، وليس هذا هو كل ما في الأمر، لأنهم سيحاولون قبل أن طردوك أن يعنفوك ويلوموك ويهينوك، وكأنك لم تضحي بصحتك من أجلهم ولم تهدمي شبابك وروحك دون أن تحصلي على أي شيء مقابل ذلك، سيعاملونك وكأنك أنت التي هدمتهم وسرقتهم وشحذت منهم. ولا تتوقعي أن تدافع عنك فتاة أخرى. ستقف صديقاتك ضدك لأنهن يردن الاحتفاظ بمكانتهن عند من يستخدمونك، ولأنكن جميعاً مستعبدات هنا، خسرتن الضمير والحنان منذ عهد بعيد. لقد غاص الضمير وغاض الحنان عندكن إلى الحضيض، ولا شيء هنالك في العالم أقذر وأحقر وأكثر مهانة من الانحطاط الذي بلغته هذه الأمور فيكن وستتركين هنا كل شيء تملكينه، دون أي أمل في استعادته - صحتك، جمالك، وآمالك، فإذا صرت في الثانية والعشرين لحت وكأنك في الخامسة والثلاثين من العمر، وستكونين محظوظة إن لم يصبك مرض - فاشكري الله من أجل هذا وصلّي له. ولن يدهشني أبداً أن تعتقدي الآن بأنك تقضين وقتاً ممتعاً - لا عمل وإنما حياة تفيض باللذة!

ولكن دعيني أخبرك بأنه لا يوجد في العالم عمل أقسى وأشد صعوبة - ولم يكن هنالك عمل أبشع منه قط.

ويدهشني أن ذلك كله لم يؤثر فيك وقت طويل. وحين يطردونك لن يكون في وسعك أن تقولي كلمة واحدة أو مقطعاً واحداً من كلمة، وستذهبين وكأنك أنت الملومة بالفعل. ستذهبين إلى مكان آخر، ثم إلى ثالث ثم إلى آخر، وستجدين نفسك أخيراً في سوق القش، وهنالك سيضربونك دائماً، دائماً، فتلك عادتهم هناك، لأن الرجل الذي يهب هناك لا يستطيع أن يكون طيباً معك إلا إذا ضربك. ألا تعتقدين بأن ذلك فظيع إلى هذا الحد هنالك؟ فاذهبي إذن وانظري بنفسك يوماً، وسترين هذا بأم عينيك. لقد رأيت في ليلة رأس السنة فتاة كانت هناك، وقد أخرجها البعض من المكان ليسخروا من منظرها، وكانت ترتعد في الشارع تحت الثلج المتساقط لأنها، لأنها أضجرتهم بسعالها، وأوصدوا الباب لئلا تدخل. وفي الساعة التاسعة صباحاً كانت فاقدة الشعور تقريباً، مشعثة، نصف عارية، وكان جلدها أزرق مسوداً، وبالرغم من أنها كانت قد وضعت بعض الأصباغ على وجهها، إلا أن عينيها كانتا بقعتين سوداوين، وكان أنفها يرعف وفمها ينزف دماً، وكانت تجلس على المدرجات الصخرية ممسكة بسمكة عفنة بيديها وكنت تصرخ مولولة منتحبة أسفاً على شؤم حياتها، وكانت تضرب بالسمكة العفنة على المدرجات في حين كان هناك جمع من سائقي العربات والجنود السكارى واقفين حولها يضحكون من منظرها.

إنك لا تظنين أنك ستكونين مثلها في يوم من الأيام، حسناً إني لا أريد أن أصدق هذا أيضاً، ولكن ما أدراك؟ ربما كانت تلك الفتاة قبل عشرة أعوام أو ثمانية، الفتاة التي كانت تمسك بالسمكة العفنة، قد جاءت

إلى هذا البيت، نضرة كالطفلة، بريئة نقية، لا تعرف شراً، وتخجلها أية كلمة. لعلها كانت مثلك مترفعة شديدة الحساسية تختلف عن الأخريات تماماً وتلوح وكأنها ملكة. كان من الممكن أن تجعل من الفتى الذي وقع في حبها والذي أحبته هي أيضاً أسعد رجل في العالم. ولكنك ترين كيف انتهى الأمر كله، أليس كذلك؟ وماذا لو استعادت في تلك اللحظة ذاتها التي كانت تضرب فيها المدرجات القذرة بتلك السمكة العفنة، والتي كانت فيها مشعثة كريهة الرائحة، ماذا لو استعادت في تلك اللحظة من ذاكرتها كل السنوات البريئة التي كانت قد قضتها يوماً في بيت أبيها، حين كانت تذهب إلى المدرسة، وحين كان ابن الجيران ينتظرها في الطريق ليؤكد لها أنه سيحبها مدى الحياة، وأنه سيكرس لها كل مستقبله، ماذا لو تذكرت كيف أنهما تعاهدا على أن يحب أحدهما الآخر إلى الأبد وأن يتزوجا حالما يكبران؟ كلا يا ليزا، إنك ستكونين محظوظة جداً لو مت سريعاً، سريعاً جداً، بالسل، في زاوية ما، في قبو كالذي ماتت فيه الفتاة التي حدثتك عنها. أتقولين في مستشفى؟ ستكونين محظوظة جداً لو أخذوك إلى مستشفى، لأنك، كما ترين، ستظلين ذات نفع لمستخدميك.

إن السل مرض غريب، وهو ليس كالحمى، لأن المسلول لا يفقد آماله حتى النهاية، وإنما يظل حتى اللحظة الأخيرة يقول لنفسه إن الأمر ليس خطيراً وأنه ليس مريضاً - خادعاً نفسه بذلك. ومع هذا فإن من يستخدمونك لن يبدو لك شيئاً من الرضا، لا تقلقي، فإنهم لن يفعلوا ذلك. لقد بعت روحك، وخرجت تموتين فيتخلى الجميع عنك، الجميع سيتركونك، إذ ما الذي سيكون في وسعك أن تقدميه لهم؟ سيعنفونك، على الأقل لأنك تشغلين غرفة دون أن تدفعي شيئاً مقابلها. سيلومونك لأنك لا تموتين بسرعة، وستتوسلين كثيراً من أجل شربة ماء، فإذا جلبوا

لك هذا الماء أخيراً فإنهم سيهينونك في الوقت ذاته: «متى تموتين أيتها الصرة القذرة؟ إنك لا تتركيننا ننام، وتئنين طيلة الوقت، كما أن الزبائن لا يريدونك». هذا صحيح، فقد سمعت هذه الأشياء بنفسي. وحين تكونين على وشك الاحتضار فإنهم سيجرونك إلى أقذر زاوية في القبو، وسط الرطوبة والظلام، فبماذا ستفكرين حين تجدين نفسك وحيدة هنالك؟ ستموتين، وسيحملك الغرباء بسرعة ونفاذ صبر وهم يتذمرون، ولن يباركك أحد، ولن ينوح من أجلك أحد، وإنما سيكون أهم شيء عندهم هو أن يبعدوك من طريقهم، وسيشترون لك تابوتاً رخيصاً ويذهبون بك إلى المقبرة كما ذهبوا بتلك الفتاة البائسة بالأمس، ثم يجلسون في حانة ويتحدثون عنك. وسيكون قبرك مملوءاً بالقذارة والثلج والندى - ولن يتعبوا أنفسهم من أجلك - لن يفعلوا ذلك! سيدفنونك هكذا:

- «انزلها أيها الولد! يا للسماوات، إن شؤمها يتبعها هنا أيضاً، وهي ترفع ساقيها هنا أيضاً، البغي! اجعل الحبال قصيرة أيها النذل! - لقد انته الأمر، وكل شيء في موضعه، - كل شيء في موضعه؟ ألا ترى أنها مائلة على جنبها؟ لقد كانت إنسانة مثلنا يوماً، أليس كذلك؟

أوه، حسناً، أَهِلِ التراب عليها! » ولن يضيعوا وقتهم في شتم أحدهم الآخر فوقك. وسيملأون قبرك بالوحل الأزرق، ثم يهبون إلى الحانة... وستكون هذه هي نهاية ذكراك في الأرض. أما النساء الأخريات فسيزور الأبناء قبرهن، والآباء والأزواج، ولن يكون لك ذلك، لن يذرف أحد شيئاً من الدموع أو الحسرات أو الذكريات من أجلك. لا أحد، لا أحد في العالم سيزور قبرك، وسيختفي اسمك من وجه الأرض وكأنك لم تولدي، القذارة، والوحل، وقد ينهض الموتى في منتصف الليل، أما أنت

فستضربين على تابوتك صارخة: «دعوني أعيش في هذا العالم أيها الناس الأخيار؟ لقد عشتن إلا أنني لم أعرف حياة حقيقية. لقد أنفقت حياتي وكأنني دكة ينظف عليها الناس أحذيتهم القذرة. لقد نزفت حياتي في حانة تقع في سوق القش. دعوني أعش أيها الناس الأخيار!».

كنت قد أوصلت نفسي بهذه الكلمات إلى حالة صرت أشعر فيها بغصة في بلعومي - وكففت فجأة، ورفعت رأسي في تعاسة وانحنيت أصغي، وقلبي يخفق بعنف. لقد كان هناك ما يدعوني إلى الشعور بأشد الارتباك. كنت أشعر منذ وقت طويل بأنني قد سحقتها ومزقت قلبها، وكنت كلما اقتنعت بذلك ازددت لهفة إلى إنهاء ما كنت بدأت به على أكمل وجه. كان ذلك قد لذّ لي كثيراً، وعلى كل حال فلم يكن دافعي إلى ذلك التذاذي به فقط.

كنت أعرف أنني كنت أتحدث بطريقة مصطنعة جامدة لا تختلف عن أساليب الكتب. والواقع أنه لم يكن في وسعي أن أتحدث إلا (وكأنني كنت أقرأ في كتاب). بيد أن ذلك لم يقلقني، لأنني كنت أعرف، كنت أشعر بأنها كانت تفهمني، وأن ذلك الأسلوب الكتبي سيسهل عليّ الأمر بدلاً من أن يعرقله. أما الآن، وقد أفلحت في التأثير عليها، فقد صرت أشعر بالخوف.

كلا، كلا، لم أشهد في حياتي مثل هذا اليأس. كانت مضطجعة في الفراش وهي تدفن وجهها في الوسادة وتتمسك بها بشدة بيديها الاثنتين. وكان صدرها يرتعش وينشج بانفعال شديد، وكان جسدها الغض يرتعد ويرتجف.

وكانت العبرات التي كانت تحاول أن تكتمها تلوح وكأنها تخنق أنفاسها وتمزق صدرها، وفجأة انفجرت باكية. وتشبثت بالوسادة الغريق. لم تكن تريد أن يعرف أحد هناك بعذابها وبدموعها. كانت تعض على الوسادة

وتعض على ساعدها حتى صار ينزف دماً (لأنني رأيت ساعدها بعد ذلك)، وكانت تنبش شعرها بأصابعها، كاتمة أنفاسها مصرة على أسنانها. وأردت أن أقول لها شيئاً وأطلب منها أن تهدئ نفسها، إلا أنني شعرت بأنه لم يكن في وسعي الاستمرار على الكلام. وفجأة نهضت وأنا أرتعد، وكأنني كنت محموماً متعباً، وبدأت أفتش عن ملابسي لأرتديها بسرعة وأذهب. وكانت الغرفة مظلمة، ولم أستطع أن أرتدي ملابسي بسرعة، وفجأة عثرت على علبة كبريت وصندوق من الشموع كانت فيه شمعة كاملة. وفي اللحظة التي أضاءت فيها الشمعة الغرفة قفزت ليزا وجلست على حافة وطفقت تنظر إليّ بوجه مضطرب تحاول نصف ابتسامة مجنونة أن تجد طريقها إليه، وكان وجهها خالياً من أي تعبير. وجلست إلى جانبها وأخذت يدها بين يدي، فاستجمعت نفسها وألقت بجسدها عليّ وكأنها كانت تريد أن تعانقني، إلا أنها لم تجرؤ، وإنما خفضت رأسها ببطء أمامي.

- ليزا، عزيزتي، إنني آسف، إنني... إنني...

بيد أنها عصرت يدي بعنف، فأدركت أنني كنت موشكاً على قول شيء غير صائب، وكففت عن الحديث.

- هاك عنواني يا ليزا، يمكنك أن تزوريني.

فقالت هامسة بثبات، دون أن تجرؤ على رفعها رأسها:

- سأفعل.

- إنني ذاهب الآن إلى اللقاء، ستأتين، أليس كذلك؟

ونهضت، ونهضت هي أيضاً، وفجأة احمر وجهها خجلاً، وارتعدت وتناولت شالاً من كرسي قريب ووضعته على كتفيها ولفعت به صدرها

حتى الذقن. ولما انتهت من ذلك ابتسمت ابتسامة شاحبة، ونظرت إلي في خجل نظرة غريبة. كنت آسفاً من أجلها، وكنت أود أن أذهب بسرعة، أن أغوص تحت الأرض.

ولكنها قالت فجأة، حين كنت قد وصلت الباب، ممسكة بمعطفي من الخلف:

- انتظر لحظة!

ووضعت الشمعة على الأرض، وانطلقت إلى مكان ما. لعلها تذكرت شيئاً أو أنها كانت تريد أن تريني شيئاً. وبينما كانت منطلقة، عادت حمرة الخجل إلى وجهها من جديد. وكانت عيناها تلتمعان، في حين أضاءت شفتيها ابتسامة. ماذا كان يعني ذلك؟ وانتظرت كارهاً ثم عادت بعد دقيقة ونظرت إليّ وكأنها كانت تسألني أن أغتفر لها شيئاً. كان وجهها مختلفاً جداً، وكانت في عينيها نظرة تختلف أشد الاختلاف عن نظراتها السابقة - التي كانت كئيبة تدفق بالشك والعناد. أما الآن فقد كانت نظرتها هادئة مستعطفة، وفي الوقت نفسه واثقة، عطوفة، خجلة. كذلك يفعل الأطفال حين ينظرون إلى متن يتعلقون بهم ويتوقعون منهم العناية والعطف.

كانت في عينيها سمرة باهتة، وكانتا جميلتين تتدفقان بالحياة، عينان يمكن أن تعبرا عن الحب، تماماً كما يمكنهما أن تعبرا عن الكراهية. ومدت لي يدها بورقة، دون أن تقول لي شيئاً لتوضيح الأمر، وكأنها كانت تعتبرني كائناً أسمى من أن يحتاج إلى إيضاح. وفي تلك اللحظة كان وجهها يشع ويتألق بانتصار طفولي ساذج. وفتحت الورقة فوجدتها رسالة موجهة إليها من تلميذ يدرس الطب أو شيئاً مثل ذلك - كانت رسالة مزخرفة الألفاظ حماسية التعابير، إلا أنها كانت تعبر عن حب نبيل. ولا يمكنني أن أتذكر

كلماتها الآن، إلا أنني أتذكر أنه بالرغم من زخرفة ألفاظها فقد كان فيها شيء من المشاعر الحقيقية التي لا يمكن أن تخفى على أحد.

ولما انتهيت من قراءة الرسالة رفعت يعني إليها فوجدتها تنظر إليّ في فضول كفضول الأطفال وكان يلوح في عينيها نفاذ الصبر والاهتمام الشديد. كانت عيناها مشدودتين بعيني، وكأنها كانت تنتظر أن أعلق على الرسالة بشيء. وقالت لي بإيجاز وبسرعة، ولكن في شيء من الغبطة والفخر، إنها حضرت يوماً حفلة راقصة في أحد البيوت «في بيت عائلة طيبة جداً، جداً، عائلة لم تكن تعرف عني شيئاً أبداً، أبداً» لأنها كانت هنا منذ وقت قصير ولم تكن تريد أن تبقى طويلاً - كلا، كانت قد عزمت على ألا تبقى طويلاً، وكانت متأكدة من أنها سترحل حالما تدفع دينها... حسناً كانت قد قابلت التلميذ في تلك الحفلة وقد راقصها طيلة المساء، وتحدث إليها، ولاحَ أنه كان يعرفها طفلة في ريغا وأنهما كانا يلعبان معاً، ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد جداً، وقد عرف أقرباءها أيضاً، إلا أنه لم يكن يعرف شيئاً عن.. لم يكن يعرف شيئاً عن (هذا) أبداً، وهو لا يشك في شيء على الإطلاق!

وفي اليوم الذي تلا ليلة الحفلة الراقصة (قبل ثلاثة أيام) أرسل إليها تلك الرسالة بيد صديقتها التي رافقتها إلى الحفلة - و - حسناً، هذا هو كل شيء.

وخفضت عينيها في خجل، بعد أن انتهت من كلامها.

يا للطفلة المسكينة، لقد كانت محتفظة برسالة التلميذ وكأنها كنز، وقد هرعت لإحضار كنزها هذا لأنها لم تكن تريدني أن أذهب دون أن أعرف أنها هي أيضاً قد عرفت الحب المخلص الأمين وأن الناس كانوا يخاطبونها باحترام. وكنت أعرف أن تلك الرسالة ستظل فيصد دائماً، دون

أن تؤدي إلى شيء ولكن ذلك لم يكن مهماً. كنت متأكداً من أنها ستحتفظ بتلك الرسالة مدى الحياة، وستحرسها وكأنها كنز لا يثمن، كنز هو كل ما لديها من فخر أو تبرير، وها هي قد تذكرتها في مثل تلك اللحظة وأحضرتها لتفخر بها بسذاجة، لتدافع عن نفسها أمامي، ولأرى الرسالة وامتدحها من أجلها. ولكنني لم أقل شيئاً، وإنما شددت على يدها وغادرت المكان. كنت متلهفاً إلى مغادرة المكان...

وعدت إلى البيت مشياً على القدمين، رغم أن الثلج الندي كان يتساقط في ندف كبيرة طيلة الوقت. وكنت أشعر بتعب شديد وبكآبة وحيرة. بيد أن الحقيقة كانت تسطع خلال حيرتي، الحقيقة التي تثير الاشمئزاز!

❊ ❊ ❊

8

واستغرق مني الأمر طويلاً قبل أن أصرح لنفسي بتلك الحقيقة. واستيقظت في الصباح التالي، بعد بضع ساعات من النوم الثقيل وتذكرت في الحال كل ما حدث لي في اليوم السابق. كنت مرتاحاً جداً من العاطفية التي تصرفت بها مع ليزا، ومن كل الحوادث المرعبة التي حدثت لي في الليلة السابقة.

وقلت لنفسي: لا بد أنني كنت أعاني من نوبة عصبية كأية امرأة سخيفة، يا الله، كم كنت أحمق! ولماذا أعطيتها عنواني؟ ماذا لو حضرت؟ وعلى كل حال فماذا لو حضرت؟ لتحضر، فإنني لن أكترث لذلك... ولكن ذلك، بكل وضوح، لم يكن كل ما في الأمر، إذ كان عليّ في تلك الساعة أن أنقذ سمعتي في نظر زفيركوف وسيمونوف. كان هذا هو المهم. وهكذا، فقد شغلني التفكير في هذا عن ليزا طيلة الصباح. كان عليّ قبل كل شيء أن أعيد النقود التي كنت أخذتها من سيمونوف في اليوم السابق. ولهذا فقد عزمت على أمر خطير: أن أقترض خمسة عشر روبلاً من أنطون أنطونوفيتش. وكان في ذلك الصباح طيب المزاج، بحيث إنه أقرضني المبلغ في الحال. وقد أسعدني ذلك، وبينما كنت أوقع على التعهد المألوف، قلت له عرضاً وأنا أتكلف شيئاً من اللا اكتراث. إننا: «أقمنا حفلة ممتعة جداً في الليلة السابقة في فندق باريس لنودع صديقاً، صديقاً منذ الطفولة، وهو شرير جداً، كما

تعلم، فاسد تماماً، وهو بالطبع، من عائلة طيبة جداً، وهو ثري ويشغل وظيفة ممتازة، كما أنه ذكي بارع له شؤون كثيرة بين النساء، وأنت تفهم ما أعني. وقد شربنا نصف دستة من القناني، إضافة إلى ما كنا شربناه قبل ذلك، وانتهى الأمر نهاية طيبة». قلت له ذلك بتدفق وثقة ورضا.

وكتبت إلى سيمونوف حالما عدت إلى البيت.

وما أزال حتى اليوم أنظر بإعجاب إلى تلك الرسالة التي كتبتها إليه، والتي عبرت فيها عن كل ما يميز السيد المهذب المرح الصريح. وقد أوضحت له فيها بمهارة وبرقة ودون أطناب كيف أنني كنت مخطئاً تماماً. وكان عذري الوحيد «لو كان هنالك عذر للطريقة التي تصرفت بها» إنني لم أكن معتاداً على الشراب، وإنني كنت قد تناولت كأساً في فندق باريس حيث كنت أنتظر قدومهم (وكنت أكذب) بين الخامسة والسادسة. واعتذرت لسيمونوف وسألته أن يوضح الأمر للآخرين، خاصة زفيركوف الذي «ما أزال أذكره وكأنني أحلم» إنني قد أهنته. وأضفت قائلاً إنه كان في نيتي أن أعتذر بنفسي لكل واحد منهم، بيد أنني كنت مصاباً بصداع شديد وإنني - بصراحة- كنت خجلاً منهم. وكنت مغتبطاً جداً بالمرح، بل بالسهولة واللااكتراث (الذين، على فكرة، لم يكن يبدو غير مهذب) والذي انعكس على أسلوبي بصورة غير متوقعة، والذي كان سيتيح لهم أن يفهموني ويعرفوا، أكثر مما في وسع أي نقاش أن يفعله، إنني لما أكن مهتماً اهتماماً شديداً «بالأمور المحزنة التي حدثت أمس»، وإنني لم أكن منسحقاً إلى الدرجة التي ظننتموها أيها السادة، وإنما كنت أنظر إلى الأمر تماماً كما يمكن أن ينظر إليه أي سيد مهذب يحترم نفسه. «ولا يمكن أن يلازم الشاب على كل ما يقترفه من الأمور الخاطئة».

وقلت لنفسي وأنا أقرأ الرسالة: «بل إن فيها شيئاً من مظاهر العظمة، وما ذلك إلا لأنني شخص مثقف إلى هذا الحد! وقد يفشل الآخرون في تخليص أنفسهم من مثل تلك الورطة، بيد أنني فعلت ذلك، وها أنا مغتبط، صافي الذهن كعهدي بنفسي دائماً، وكل ذلك لأنني رجل مثقف، ومفكر من الطراز الحديث!».

والواقع أن الأمر كله كان بسبب الخمر. حسناً، لعله لم يكن بسبب الخمر، فالحقيقة هي أنني لم أشرب شيئاً بين الخامسة والسادسة، بينما كنت في انتظارهم. كنت قد كذبت على سيمونوف، كنت قد أدليت له بأشنع كذبة، بيد أنني لا أشعر بالأسف من أجل ذلك، حتى ولا الآن...

وعلى كل حال، فليذهب الأمر كله إلى الجحيم! فالمهم هو أنني استطعت أن أنجو بنفسي.

ووضعت ستة روبلات في الرسالة، وختمتها، وطلبت من أبللون أن يحملها إلى سيمونوف. ولما عرف أبوللون أن الرسالة كانت تحتوي على مال، أمسكها باحترام ورضي بأن يحملها إلى سيمونوف. ولما حل المساء خرجت لأتمشى قليلاً، وكنت ما أزال أشكو من الصداع، وأشعر بالمرض. بيد أن مشاعري وأفكاري كانت تزداد ربكة وحيرة كلما تقدم المساء اشتد الظلام. كان هنالك في أعماقي، في أعماق قلبي وضميري شيء مستثار، شيء يرفض أن يتلاشى، وكان يعلن عن نفسه خلال شعور حاد بالألم الشديد. وكنت أتمشى في أكثر الشوارع ازدحاماً بالناس دون أن يكون لي هدف معين، وقد سرت في شارع ميشانسكايا، وشارع سادوفايا، وحديقة يوسوبوف. وكنت أميل دائماً إلى التمشي في شوارع ثلاثة، خاصة عندما يهبط المساء وتكون الشوارع مزدحمة بجموع العُمّال ورجال الأعمال

العائدين إلى بيوتهم ووجوههم تطفح بالضيق والقلق. وكان ما يحبني إلى ذلك يتمثل في الصخب وذلك الاندفاع اللذان هيجاني في ذلك المساء كثيراً ولم أستطع السيطرة على مشاعري، ولم يكن في وسعي أن أجد تبريراً للأشياء التي كنت أشعر بها. كان هنالك في أعماق روحي شيء يفيض، يفيض بألم وباستمرارية، دون أن يكون في وسعي أن أهدئه. وعدت إلى البيت وأنا أشعر بارتباك شديد. كنت أشعر وكأن جريمة ثقيلة كانت تجثم فوق صدري وتثقل على ضميري.

وقد أقلقني كثيراً التفكير في أنه قد تحضر ليزا لزيارتي. ولاح لي أمراً غريباً جداً أن تعذبني ذكراها أكثر من أشيء آخر، ذكراها بصورة خاصة. واستطعت أن أطرد من ذهني كل شيء آخر في ذلك المساء: استطعت أن أنسى كل شيء وأن أغتبط بالرسالة التي بعثت بها إلى سيمونوف، بيد أنني لم أكن مقتنعاً بأفكاري التي كانت تدور على ليزا، وكأن تذكري لها كان السبب الوحيد في شقائي. وطفقت أتساءل طيلة الوقت: ماذا لو حضرت؟ وماذا لو فعلت ذلك؟ لتفعل. هم م م م... بيد أنني لا أريدها أن ترى كيف أعيش. لقد لحت لها بالأمس - اغ! - بطلاً، أما الآن - اغ! - هم م م م..! وقد أقلقني أن أتمزق هكذا، لأن كل شيء في غرفتي كان حقيراً ممزقاً. وكيف خرجت بالأمس لتناول طعام العشاء وأنا بتلك الملابس؟ وتلك الأريكة المبطنة بالقماش الأميركي والموضوعة في غرفتي، وكيف أن الحشوة كانت ظاهرة من شقوقها، وملفعتي الممزقة التي لم تكن كافية لتغطي جسدي بصورة لائقة! مزق وأطمار...

وسترى ذلك كله، وسترى أبوللون أيضاً، وقد يهينها الخنزير أيضاً. سيكون قاسياً معها، لا لشيء إلا لأنه يريد أن يكون قاسياً معي أنا.

وسأحاول أن أمثل أمامها كالمعتاد، وأتكلف في تصرفاتي، وألف نفسي بأذيال ملفعتي، وابتسم، وأروي لها الأكاذيب. اغ! إنه لأمر يثير الاشمئزاز! وليس هذا هو ما يثير الاشمئزاز وحده، إن هناك أمراً شديد الأهمية، مفزعاً جداً، مهيناً ! أجل، أشد إهانة! سأستأنف ذلك الخداع والتكلف وتلك الأكاذيب من جديد - من جديد!

ولما كنت قد بلغت هذه المرحلة من التفكير، فإنني لم أتمالك أن أثور على نفسي:

لماذا سيكون ذلك مهيناً؟ لماذا يكون مهيناً؟ لقد كنت أتحدث بصدق وإخلاص في الليلة الماضية، وإني لأذكر إنه كان في نفسي شعور حقيقي أصيل أيضاً لقد أردت أن أثير فيها شيئاً من المشاعر الشريفة... وإذا كان ذلك قد أبكاها قليلاً، فقد كان بكاؤها أمراً لصالحها، بل إنه سيؤثر فيها أشد تأثير، وستكون له نتائج طيبة في نفسها..

وظللت طيلة ذلك السماء، وحتى حين عدت إلى البيت، أتذكرها، بل حتى حين دقت الساعة معلنة التاسعة، لاح جلياً أنها لن تحضر، فإنني لم أستطع أن أكف عن التفكير في إمكانية حضورها، وفوق ذلك، فقد كنت أراها في ذهني وهي في وضع معين، كانت لحظة واحدة من لحظات تلك الليلة قد ظلت في ذهني لا تفارقه، ظلت واضحة في ذهني كل الوضوح، وكانت تلك هي اللحظة التي أشعلت فيها عود الثقاب ورأيت وجهها الشاحب المضطرب، والنظرة المعذبة التي كانت تلوح في عينيها أية ابتسامة تثير الأسى، أية ابتسامة شاذة ملتوية كانت في عينيها في تلك اللحظة! ولكنني لم أكن أدرك في تلك اللحظة أنني سأظل مدى خمسة عشر عاماً أرى ليزا في خيالي وهي في تلك الوضعية التي تثير الأسى، وفي عينيها تلك الابتسامة الغريبة.

وفي اليوم التالي كنت مستعداً لنسيان ذلك، ولاعتباره سخفاً، ونتيجة لتوتر أعصابي وإغراقي في الخيال. وكنت أدرك تلك النقطة الخطيرة من نقاط الضعف في نفسي، كنت أخافها أشد الخوف. وكنت أقول لنفسي دائماً: المشكلة معي هي أنني أبالغ في فهمي للأشياء. ومع ذلك ما يزال – «ما يزال متوقعاً أن تحضر ليزا». وكانت تلك هي اللازمة الدائمة التي كنت أخاطب نفسي بها. وكنت أشعر بالقلق الشديد من جراء ذلك في بعض الأحيان، بحيث إنني كنت أصرخ في غضب أعمى: «ستأتي! ستأتي بالتأكيد!» وكنت أذرع أرض غرفتي في حيرة شديدة وأضيف: «إن لم تحضر اليوم فغداً، بيد أنها ستحضر بالتأكيد! ستفتش عني في الخارج، إذ إن هذا هو ما تتميز به الرومانتيكية اللعينة التي تفيض في القلوب النقية! أوه، يا للاشمئزاز، أوه، يا للحمق، أوه، يا لغباء هذه «النفوس العاطفية» اللعينة! كيف لا يكون في وسعها أن تفهم؟ لماذا؟ لقد كان في استطاعة أي إنسان أن يفهم».

ولكنني أتوقف هنا، تتملكني الحيرة والارتباك.

وقلت لنفسي بعد ذلك: كم هي قليلة، كم هي قليلة الكلمات والأوصاف (رغم كونها مصطنعة، كئيبة، غير صادقة) التي أمكنني بها أن أغير حياة إنسانية كاملة وأجعلها كما أشاء! هنالك ما يوحي بالتأكيد بأن فيها شيئاً من البراءة، شيئاً من طبيعة العذراء...

وكنت أتساءل أحياناً: لماذا لا أذهب إليها، وأخبرها بكل شيء، وأطلب منها أن لا تحضر؟ بيد أنني كنت أشعر بغضب شديد، وقد لاح لي أثناء ذلك الغضب أنه لو كانت ليزا قريبة مني لسحقتها سحقاً وأذللتها، ولكنت انهلت عليها بالإهانات القاتلة، وطردتها وضربتها!

وعلى أي حال، فقد مرّ يوم وثانٍ وثالث، ولم تحضر ليزا، وبدأت أشعر بشيء من راحة الذهن. وكنت أشعر بأشد الغبطة حين كانت الساعة تتعدى التاسعة مساءً، بل كنت أسرح أحياناً، وأحلم في يقظتي بأحلام عذبة: مثلاً، إنني أنقذ ليزا، لا لشيء إلا لأنها تحضر إليّ بانتظام وأتحدث إليها دائماً، وأقفها... وأوسع ذهنها. ثم ألاحظ أخيراً أنها صارت تحبني. وأتظاهر بأنني لا أشعر بذلك، (ولست أدري لماذا سأتظاهر بذلك، لعل ذلك يرجع إلى روعة الأمر وعذوبته)، وأخيراً، وبينما تكون شديدة الحيرة، في غاية الجمال، ترتجف وترتعد، فإنها تلقي بنفسها على قدمي وتخبرني بأنني قد أنقذتها وبأنها تحبني أكثر من أي شيء آخر في العالم. وأنظر إليها دهشاً، ولكن: ليزا! ما أظنك تعتقدين بأنني لم ألاحظ حبك لي منذ البداية، لقد رأيت كل شيء، وخمنت كل شيء، لأنني كنت أعرف أنك كنت واقعة تحت تأثيري، وكنت أخشى أن يدفعك اعترافك بالجميل إلى إرغام نفسك على حبي، كنت أخشى أن تخلقي في قلبي شعوراً لم يكن موجوداً في الأصل، ولم أرد ذلك لأنني - لأنه سيكون عدم إنصاف من جانبي، وأمراً خالياً من الذوق... - حسناً، لقد وجدت نفسي بعد ذلك غارقاً في غمرة من المشاعر النبيلة التي كانت من الطراز الأوروبي، (طراز جورج صائد مثلاً). إلا أنك ملكي الآن، وقد خلقتك خلقاً، وإنك جميلة، نقية، إنك - زوجتي الجميلة!

«فادخلي بيتي..

وحلي في شغافي..

حرة، يا ربة البيت،

ادخليه..

لا تخافي!»

ثم نعيش بعد ذلك سعيدين، ونسافر إلى الخارج، إلخ إلخ. وقد سمحت لنفسي، باختصار، أن تغرق في هذه التصورات، بحيث إنني لم أتمالك أن أُخرج لساني ساخراً من نفسي في النهاية..

وبالإضافة إلى ذلك فإنهم لن يسمحوا لها بالخروج، البغي! وما أظن أنه يُسمح لهن بالخروج إلا نادراً، على أن لا يكون ذلك في المساء (لست أدري ما الذي كان يدفعني إلى الاعتقاد بأنها ستحضر في المساء، وفي الساعة السابعة تماماً). وعلى كل حال فقد أخبرتني بنفسه بأنها ليست مرتبطة بهم ارتباطاً وثيقاً، وبأنها كانت تتمتع بامتيازات خاصة، وهذا يعني - هم.. اللعنة! إذ إنها ستحضر! ستحضر بالتأكيد!

ولحسن الحظ فقد شغلني أبوللون عنها مؤقتاً بسلوكه السمج، وقد نفذ صبري معه تماماً! كان أبوللون الدمار بعينه في حياتي، العقاب الذي فرضه الله عليّ. وكنا نتشاجر دائماً، دائماً، وكم كنت أكرهه! وما أظن أنني كرهت أحداً يوماً كما كرهته، خاصة في بعض الأحيان. وكان أبوللون كبير السن، مغروراً، وكان يشتغل خياطاً في أوقات فراغه. وكان يحتقرني لسبب لم أكن أعرفه، وكان ينظر إليّ بطريقة كانت تقودني إلى الجنون أحياناً. والحق أنه كان يحتقر الناس جميعاً، ولو تصورته جيداً، بشعره الأشقر المرتب بعناية، الذي تنفر منه خصلة فوق جبينه، الذي يدهنه دائماً، وبفمه الذي يبدو دائماً في شكل رقم 7 - فإنك تشعر بأنك في حضرة رجل لم يعرف الشك يوماً. وكان أبوللون ملحاحاً ثرثاراً أيضاً، بل كان أفظع ملحاح عرفته في حياتي، وكان يتصف بغرور لا يمكن أن يتصف بمثله إلا الإسكندر الكبير مثلاً. وكان يعشق كل زر من أزرار سترته، وكل شعرة في رأسه، أجل، كان يعشقها بالتأكيد وكان يبدو كذلك دائماً! وكان سلوكه

نحوي مهيناً جداً، ولم يكن يتحدث معي إلا نادراً، ولو حدث أن تنازل ونظر إليّ فإن نظرته تكون على جلال ووقار وثقة واعتداد بالنفس، بل إنها تفيض بالاحتقار بحيث إنها كانت كافية أحياناً لإثارة جنوني. وكان يخدمني بطريقة تجعلني أشعر بأنه إنما كان يسبغ فضلاً عليّ، الواقع إنه نادراً ما كان يخدمني، بل إنه لم يكن يعتقد بأنه يجب أن يخدمني. ولا شك في أنه كان يعتبرني أغبى الناس في الواقع، إذا كان قد تلطف وسمح لي (بالسكنى معه)، فلأنه يحصل على أجره مني كل شيء. ولذلك فقد كان يتنازل (ولا يفعل من أجلي شيئاً) مقابل سبعة روبلات في الشهر. وإنني واثق من أن عدداً كبيراً من خطاياي ستُغتفر لي بسبب ما لقيته على يدي أبوللون. كنت أكرهه أحياناً إلى درجة أنني كنت أصاب بنوبات شديدة كلما سمعت وقع أقدامه. ولكن أشد ما كرهته فيه كان لثغه، ولعل لسانه كان طويلاً جداً، أو كان في فمه شيء من هذا لنوع، لأنه كان يلثغ ويخلط بين الكلمات دائماً، وأعتقد أنه كان فخوراً بذلك إلى درجة فظيعة، وأنه كان يتصور أن ذلك كان يضيف وقاراً على وقاره وكان يتحدث بصوت بطيء متزن، عاقداً ذراعيه خلف ظهره، وناظراً إلى الأرض. وكان يغيظني أشد الغيظ حين كان يقرأ المزامير في غرفته. وقد اشتركت في عدة معارك بسبب تلك القراءة، إلا أنه كان مولعاً ولعاً فظيعاً بقراءة المزامير بصوت عالٍ في الأمسيات، منغماً إياها ببطء، فكأنه كان يقرأ المزامير من أجل الأموات. ومن الغريب أن يكتفي بذلك فقط، فهو يذهب لقراءة المزامير على أرواح الموتى مقابل أجرة، ويقتل الفئران ويصنع منها دهاناً لتلميع الأحذية. ولم يكن في وسعي أن أتخلص منه فكأنه كان قد امتزج بي امتزاجاً كيماوياً. وبالإضافة إلى ذلك فلم يكن مستعداً لتركي مهما حدث، لأنني لم أكن قادراً على السكنى في شقة مؤثثة، وإنما كنت أعيش في شقة غير مؤثثة، صغيرة جداً، وكان

الزنزانة التي كنت أخفي نفسي فيها عن البشرية، ولسبب لا أعرفه، كان أبوللون يلوح وكأنه جزء لا يتجزأ من تلك الشقة، ولذلك لم أستطع أن أتخلص منه طيلة سبعة أعوام.

ولم يكن في وسعي أن أفكر بتأخير أجره حتى ولو يومين أو ثلاثة أيام. لأنه كان يُحدِث ضجة كبيرة ولا يتركني أجد طريقاً أهرب منه. بيد- أنني كنت في ذلك الوقت كارهاً للجميع إلى درجة أنني قررت، لسبب لا أعرفه، أن أعاقب أبوللون، وذلك بتأخير أجره أسبوعين كاملين.

كنت أريد أن أفعل ذلك منذ زمن بعيد، طيلة السنتين السابقتين، لأريه فقط أنه لا حق له في أن يعاملني بتلك المعاملة المهينة وأنني قادر على ألا أدفع أجره لو شئت. وقررت ألا أخبره عن الأجر وأن أتجاهل الأمر عامداً لكي أسحق غروره واضطره إلى طلب ذلك بنفسه، ثم أتناول الروبلات السبعة من الدرج وأريه إياها، ليعرف أنني أملك ذلك المال، وإنما وضعته جانباً عن قصد، ثم أقول له: «لن، لِن، بكل بساطة، لن أعطيك أجرك! لن أعطيك إياه، لا لسبب إلا لأنني لا أريد أن أفعل ذلك»، لأنني كنت سيد البيت، ولأنه لم يبد نحوي الاحترام اللائق بي، ولأنه كان خشناً، أما لو كان سألني برقة، فقد أتنازل وأعطيه المبلغ، وإلا فإنه سينتظر أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وربما شهراً..

وبالرغم من أنني كنت قد تصرفت معه بمنتهى العبوس والغضب، إلا أنه استطاع أن يتغلب عليّ في النهاية، ولم يكن في وسعي أن أصمد أمامه أربعة أيام، لأنه بدأ...، تماماً كعهدي به في مثل هذه الظروف، إذ كنت حاولت معه مثل هذه المحاولات من قبل (ودعني أضيف: إنني كنت أعرف كل هذا من قبل أيضاً، كنت أعرف أساليبه الحقيرة في مثل هذه الأحوال

جيداً) - أما أساليبه في هذا، فهي أن يبدأ التحديق في وجهي بنظرة قاسية تستمر بضع دقائق، وهو يرمقني بهذه النظرة كلما جاء إلى الغرفة لشأن من الشؤون وكلما خرجت من البيت، فإذا لم أتراجع، وإذا تظاهرت بأنني لم ألاحظ نظراته، فإنه يحاول -في صمت أيضاً- أن يجد لي عذاباً آخر. قد يدخل الغرفة فجأة دون استئذان، ولكن بهدوء ونعومة، حين أكون منهمكاً في المطالعة، أو حين أتمشى في الغرفة، ويقف بالباب واضعاً إحدى يديه خلف ظهره وإحدى قدميه في داخل الغرفة، ويثبت عينيه في وجهي. ولا تكون نظرته هذه المرة قاسية وحسب وإنما مهينة أيضاً. وإذا سألته فجأة عما يريد فإنه لا يجيب وإنما يتابع حملقته بضع لحظات ثم يرسم على شفتيه تعبيراً ذا معنى ويستدير ببطء ويعود إلى غرفته. وتمر ساعتان ويغادر الغرفة ثانية ليظهر لي كما ظهر في المرة الأولى. وكان الغضب يتملكني في بعض الأحيان فلا أسأله عما يريد وإنما أرفع رأسي بحدة وبشيء من الوقار وأحدق في وجهه أيضاً، ونظل محملقين أحدنا في وجه الآخر دقيقتين، وأخيراً يستدير ويذهب في بطء ووقار، ليعود بعد ساعتين أيضاً.

فإذا لم يعدني ذلك كله إلى صوابي، وإذا أصررت على موقفي فإنه يبدأ بالتأوه محملقاً فيّ، وكأنه يقيس بكل آهة يطلقها كل العمق الذي تصل إليه دناءتي، وينتهي ذلك طبعاً بانتصاره الكامل عليّ.. إذ إنني أصرخ وأنفعل، رغم أنه يكون عليّ أن أفعل كل ما يتوقعه مني.

وهكذا فلم يكد يبدأ بالتحديق في وجهي هذه المرة حتى فقدت أعصابي مباشرة، واندفعت نحوه في غضب أعمى، وصرخت بينما كان هو يدور ببطء وبصمت واضعاً إحدى يديه خلاف ظهره، عائداً إلى غرفته:

- قف! عد، أقول لك عد!

لا بد أنني كنت قد زجرت بصوت غير طبيعي، لأنه استدار ثانية وطفق ينظر إليّ في دهشة، ولكنه لم يقل شيئاً أيضاً، الأمر الذي ضاعف غضبي:

- كيف تجرؤ على الدخول إلى غرفتي دون أن تطرق الباب أولاً وكيف تحملق في وجهي هكذا؟ أجب! بيد أنه نظر إليّ في برود نصف دقيقة أخرى، ثم استدار مرة أخرى. وصرخت وأنا أقفز نحوه:

- قف! لن تجرؤ على الحركة! آه، هذا أفضل! والآن أجبني: لماذا جئت تحملق فيّ هكذا؟

فقال، بعد أن ظل صامتاً فترة أخرى، وكان يلفظ الكلمات بطريقته المتزنة البطيئة، رافعاً حاجبيه، مميلاً رأسه بهدوء من جانب إلى آخر، وكل ذلك باتزان واعتداد قاتلين:

- إذا كان هناك أي شيء يا سيدي تريدني أن أفعله الآن فإن من واجبي أن أنفذه لك!

بيد أنني صرخت وأنا أرتعد غضباً:

- ليس هذا ما سألتك عنه أيها اللئيم! سأخبرك بنفسي أيها اللئيم لماذا جئت هنا: أنت ترى أنني لم أعطك أجرك، ولما كنت تترفع عن سؤالي بنفسك فإنك تكتفي بالمجيء والتحديق في وجهي ببلاهة وكأنك تريد أن تعاقبني، أن تعذبني دون أن تفضح نفسك، يا من تعذبني، كم هو سخيف، سخيف، سخيف، سخيف، الأمر كله!

وأراد أن يستدير مرة أخرى، إلا أنني أمسكت به وصحت في وجهه:

- انظر، ها هي النقود! هل تراها؟ ها هي! (وأخرجتها من درج المنضدة) الروبلات السبعة كلها، ولكنك لن تحصل عليها، لن - تحصل - عليها - حتى تحضر أمامي بكل احترام وتعترف بخطئك وتقول إنك آسف، أتسمعني؟

ولكنه أجاب بثقة واعتداد طبيعيين:

- لن يحدث مثل هذا!

فصحت:

- بل سيحدث، وإنني أقسم - أنه سيحدث!

ولكنه استمر قائلاً، وكأنه لم يسمع صيحاتي:

- ليس هنالك ما أعتذر عنه، كما أنك قلت إنني لئيم، ويمكنني بهذا أن أرفع دعوى ضدك في مركز البوليس!

فزمجرت:

- اذهب وارفع دعواك! اذهب في الحال، في هذه الدقيقة، في هذه اللحظة بالذات! أنت لئيم! لئيم! لئيم! ولكنه نظر إليّ فقط، ثم استدار - دون أن يكترث لصيحاتي إذ كنت آمره بأن يقف، سار نحو غرفته بخطى متزنة، دون أن يلتفت خلفه.

وقلت في نفسي: لولا ليزا لما حدث هذا كله! وبعد أن وقفت صامتاً لحظات، ذهبت بنفسي إلى غرفته في رصانة واتزان، رغم أن قلبي كان يخفق بطيئاً ثقيلاً، وقلت في هدوء وأنا أشدد على العبارات، رغم أنني كنت مختنق الأنفاس:

- أبوللون، اذهب وأحضر مفتش البوليس حالاً، حالاً!

وكان في ذلك الوقت قد جلس إلى منضدته ووضع نظارتيه على عينيه، انهمك يخيط، بيد أنه ما أن سمع عباراتي تلك حتى انطلق مقهقهاً.

- اذهب حالاً! في هذه الدقيقة! أقول لك اذهب، وإلا فلن أكون مسؤولاً عما قد يحدث!

فقال دون أن يرفع رأسه، لاثغاً بطريقته البطيئة وهو يغرز الإبرة في القماش بهدوء:

- لا شك أنك لست في وضع طبيعي يا سيدي، وإلا فهل يعقل أن يذهب أحد إلى البوليس للشكوى ضد نفسه؟ بيد أنك إذا كنت تريد أن تخيفني بهذا فيمكنك أن توفر على نفسك عناء ذلك، لأنه لن يؤدي إلى نتيجة!

فأمسكت بكتفيه وصرخت وأنا أشعر بأنني كنت سأضربه في أية لحظة

- اذهب !

ولكنني لم أكن قد سمعت صوت الباب وهو يفتح في تلك اللحظة ببطء وهدوء، ولم أرَ الشخص الذي كان قد دخل ووقف ساكناً محملقاً فينا بارتباك.

ورفعت رأسي وأنا أكاد أفقد شعوري خجلاً، واندفعت نحو غرفتي، وهناك أمسكت بشعري بين يدي وأملت رأسي إلى الجدار وبقيت في تلك الوضعية ساكناً لا أتحرك.

ومرت دقيقتان، ثم سمعت وقع خطوات أبوللون وصوته وهو يقول لي، وفي عينيه نظرة قاسية:

- هنالك شابة تريد أن تراك يا سيدي!

ثم تنحى جانباً ليفسح الطريق لليزا. ولاح عليه أنه لم يكن يريد أن يذهب، إذ ظل ولقفاً ينظر إلينا بسخرية. فهتفت وأنا أكاد أفقد صوابي:

- اذهب! اذهب!

وفي تلك اللحظة بذلت ساعتي مجهوداً كبيراً وارتعدت وأعلنت السابعة!

* * *

9

«فادخلي بيتي..

وحلي في شغافي

حرة، يا ربة البيت

أدخليه،

لا تخافي!»

وقفت أمام ليزا وأنا منسحق تماماً، أشعر بالضعة وارتباك الشديد، وأعتقد أنني ابتسمت محاولاً في يأس أن أغطي نفسي بأذيال ملفعتي الممزقة العتيقة، تماماً كما تصورت أنني سأفعل حين كنت في لحظة من لحظات كآبتي. وظل أبوللون يرقمنا بضع لحظات، ثم ذهب، غير أن ذلك لم يجعلني أشعر بأي تحسن، وأسوأ ما في الأمر أنها هي أيضاً كانت تعبر عن أشد الارتباك، الأمر الذي لم أكن أتوقعه منها. وقلت بصورة ميكانيكية، وأنا أقدم لها كرسياً قرب المنضدة:

- اجلسي.

أما أنا فقد جلست على الأريكة، وجلست هي أيضاً مطيعة إياي في الحال، ناظرة إليّ بعينين واسعتين. كانت بوضوح تتوقع مني أن أفعل أي

شيء في لحظة. وقد أغاظني جداً السذاجة التي كانت تعبر بها عن توقعها ذاك، بيد أنني تمالكت نفسي.

لو كان لديها أي إدراك لتظاهرت بأنها لم ترَ شيئاً، وبأن كل شيء هو في مجراه الطبيعي، ولكنها بدلاً من ذلك...

وشعرت بشعور غامض كان يوحي إليّ بأني يجب أن أجعلها تدفع الثمن غالياً من أجل كل هذا.

وقلت متعثراً، وأنا أدرك تماماً بأنني يجب أن لا أبدأ بالحديث معها بهذا الشكل:

- أخشى أن تكوني قد وجدتني في وضع شاذ يا ليزا، كلا، كلا، لا تعتقدي أن هنالك شيئاً هاماً.

رأيت حمرة الخجل تصبغ خديها فقلت:

- لست خجلاً من فقري، بالعكس، إنني فخور به. إنني رجل فقير ولكنني شريف. ويستطيع الإنسان أن يكون فقيراً وشريفاً كما تعلمين. على أي حال، هل تريدين شيئاً من الشاي؟

- كلا، أشكرك.

- انتظري لحظة !

وقفزت من مكاني، وانطلقت نحو أبوللون. وكنت أريد أن أبتعد عن عينيها قليلاً. وقلت لأبوللون هامساً بانفعال وبسرعة، وأنا أرمي على منضدته بالروبلات السبعة التي كنت ما أزال أمد قبضتي عليها حتى تلك اللحظة:

- هو ذا أجرك يا أبوللون، إنني أعطيك إياه كما ترى، ولكن عليك أن تنقذني من أجل هذا.. اذهب في الحال وأحضر لنا قدحين من الشاي واثنتي عشرة قطعة من البسكويت المحلى القريب. وإذا رفضت فإنك ستجعلني أشقى الناس في العالم! إنك لا تعرف أية امرأة نبيلة هي! إنها رائعة! وقد تظن أن في الأمر شيئاً - اغ! - بيد أنك لا تعرف أية امرأة نبيلة هي! ونظر أبوللون إلى النقود صامتاً دون أن يضع الإبرة من يده، وكان في تلك الأثناء قد جلس إلى منضدته واستأنف عمله ثانية، ولم يكترث لي، ولم يجبني بشيء، وإنما استمر يحاول أن يضع الخيط في الإبرة.

وانتظرت ثلاث دقائق وأنا أقف أمامه عاقداً ذراعي كما كان يفعل نابليون! وكان صدغاي يتصببان عرقاً. كنت شديد الشحوب - وكان في وسعي أن أشعر بذلك. ولكن شكراً لله، لعله شعر بالأسف حين نظر إليّ، لأنه ما أن انتهى من وضع الخيط في الإبرة حتى نهض ببطء أيضاً، ووضع نظارتيه على عينيه ببطء، وعدّ النقود ببطء، وأخيراً سألني إن كنت أريد شاياً لشخصين، ثم غادر الغرفة ببطء... وخطر ببالي وأنا أعود إلى ليزا أن أهرب بصرف النظر عن ملابسي الداخلية، أن أفر إلى أية جهة، وأدَع الأمور تجري كما تشاء. وجلست ثانية، وكانت ليزا تنظر إليّ بقلق، ولم نتحدث بضع دقائق:

ثم ضربت المنضدة بقبضتي ضربة جعلت الحبر ينسكب من المحبرة، وصرخت فجأة:

- سأقتله !

فقالت مذعورة:

- يا للسموات، ما تقول؟

ولكنني هتفت وأنا اضرب المنضدة ثانية في غضب شديد، مدركاً في الوقت نفسه أنه كان من الحماقة أن أندفع في مثل ذلك الغضب:

- سأقتله! سأقتله! لا يمكنك أن تتصوري يا ليزا أي لئيم هو! إنه معذبي! لقد خرج ليحضر بعض البسكويت - إنه...

وفجأة انفجرت باكياً، كانت نوبة عصبية مفاجئة، وكنت أشعر خلال دموعي بأشد الخجل، بيد أنني لم أستطع أن أضبط نفسي.

ولاح عليها خوف شديد، ووقفت أمامي متسائلة بإلحاح:

- ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

وتمتمت بصوت ضعيف، مدركاً في الوقت نفسه أنني كنت أستطيع أن أستغني عن الماء وألا أتحدث بذلك الصوت الضعيف، بيد أنني كنت أمثل لأخفي مشاعري، رغم أن نوبتي كانت حقيقية تماماً:

- ماء.. أعطني قليلاً من فضلك... إنه موضوع هناك.. وسقتني قليلاً من الماء وهي تنظر إليّ بحيرة شديدة، وفي تلك اللحظة أحضر أبوللون الشاي. وشعرت بأن هذا الشاي العادي التافه لم يكن لائقاً بعد كل ما حدث، واحمررت خجلاً، كانت ليزا تنظر إلى أبوللون في رعب، بينما كان يغادر الغرفة دون أن ينظر إلينا..

وسألتها وأنا أنظر إليها مرتعداً بصبر نافذ لكي أعرف ما كان يدور في خلدها:

- أتحتقرينني يا ليزا؟

وغلب عليها الارتباك فلم تعرف ما كان عليها أن تقول. ولكنني قلت بغضب:

- اشربي شايك.

كنت غاضباً على نفسي، ولكن، كان عليها هي بالطبع أن تقاسي من أجل ذلك. وشعرت في أعماق قلبي بكراهية شديدة نحوها. وأعتقد أنه كان بوسعي أن أقتلها وأن أنتقم لنفسي منها. وقطعت على نفسي عهداً بأن لا أقول لها شيئاً، طيلة فترة وجودها في غرفتي. وقلت في نفسي: عليها وحدها يقع اللوم. واستمر صمتنا خمس دقائق،كان الشاي موضوعاً على المنضدة، ولكنها لم تلمسه. وكنت قد ذهبت بعيداً في سلوكي إلى درجة أنني تقصدت ألا أشرب الشاي وذلك لكي أجعلها تشعر بارتباك أشد، وهكذا لا يكون في وسعها أن تشرب الشاي وحدها.

ونظرت إليّ عدة مرات بحيرة يتجلى فيها الأسى الشديد. وظللت صامتاً في عناد. كنت، بالطبع، أتعذب أكثر منها، لأنني كنت أدرك جيداً مدى حقارة حماقتي الكريهة، بيد أنني لم أستطع أن أفعل شيئاً لأضبط نفسي. وقالت وهي تبذل مجهوداً كبيراً لتقطع الصمت:

- إنني.. إنني أريد أن أخرج من ذلك المكان.. لأكون أفضل...

يا للمسكينة، كان ذلك هو الأمر الوحيد الذي لم يكن مناسباً أن نتحدث عنه في تلك اللحظة لأنه كان أمراً شديد الحماقة، خاصة إذا كان يقال لرجل مثلي، لرجل في مثل حماقتي. وشعرت بغصة وبفيض من الشفقة نحوها، حسن رأيتها تتلعثم، وحين تحسست صراحتها التي لم تكن ضرورية. بيد أن شيئاً شديد القسوة انبعث في أعماقي وخنق شعوري بالشفقة نحوها. وهكذا أثارني ذلك أكثر - إلى الجحيم! ومرت خمس دقائق أخرى، فأضافت بعدها هامسة بصوت يكاد يكون غير مسموع، وهي تحاول أن تنهض:

- لعلي جئت في وقت غير مناسب، أليس كذلك؟

بيد أنني شعرت بأن كبريائي قد جرح، فانفجرت قائلاً بحقد شديد:

- لماذا جئت هنا؟ أجيبي! أجيبي!

وكنت ألهث، ولا أكترث لأسلوب عباراتي. كنت أريد أن أنفجر بكل شيء في الحال، ولهذا لم يكن ليهمني كيف أبدأ:

- سأخبرك يا فتاتي العزيزة لماذا جئت إلى هنا، لقد جئت لأنني كنت أتحدث إليك بحديث شجي في تلك الليلة. وقد أعجبك ذلك فجئت لتسمعي المزيد. حسناً، يجب عليّ أن أخبرك بأنني كنت أسخر منك، كما أنني سأسخر منك الآن أيضاً. لماذا ترتعدي؟ أجل، لقد كنت أسخر منك! كنت قد أُهنت قبل ذلك، كان قد أهانني زملائي الذين تعشيت معهم في تلك الليلة. وذهبت إلى المكان الذي تعيشين فيه لأنني كنت أريد أن أصفع أحدهم، وهو ضابط في الجيش، ولكني جئت متأخراً لأنه كان قد ذهب. وهكذا كان عليّ أن أنتقم لكبريائي المهان من شخص ما، وأن أعوض نفسي عن ذلك، وببث حقدي عليك وسخرت منك. لقد ذُللت، وكنت أريد أن أذل إنساناً ما أنا أيضاً. لقد أهانوني وترفعوا عليّ، ولهذا أردت أنا أيضاً أن أُظهر قوتي. هذا هو كل ما حدث، أما أنت فقد ظننت أنني جئت خصيصاً لإنقاذك، أليس كذلك؟ لقد ظننت ذلك، أليس كذلك؟ لقد ظننت ذلك، أليس كذلك؟

كنت أعرف أن ذلك سيربكها وأنها لن تفهم شيئاً على الإطلاق، بيد أنني كنت أعرف أيضاً أنها ستفهم. وكان ذلك هو ما حدث، لأنها ابيضت وحاولت أن تقول شيئاً ولكن شفتيها خانتاها. وقبل أن تقول شيئاً كانت

قد تهاوت على الكرسي وكأن بلطة ضخمة قد شطرتها إلى نصفين وطفقت تستمع إليّ مفتوحة الفم طيلة الوقت، مرتعدة في رعب. لقد سحقتها سحقاً بعباراتي اللاذعة التي كانت تتدفق بالتهكم...

واستأنفت كلامي وأنا أقفز من الكرسي لأذرع أرض الغرفة أمامها:

- ولكي أنقذك! أنقذك من ماذا؟ بل لعلي أكون أسوأ منك! لماذا لم تقولي لي في تلك اللحظة بالذات عندما كنت ألقي عليك بمحاضرتي: «ولماذا حضرت أنت إلى هذا المكان؟ ألكي تلقي عليّ محاضرة في الأخلاق؟» لقد كنت أريد أن أسيطر. كانت السيطرة هي كل ما كنت أريد في تلك اللحظة. كنت أريد أن أمرح، كنت أريد أن أراك تبكين. لقد أردت ذلك وأردت أن أُشعرك بالذلة وأن أهسترك، وكان ذلك هو ما كنت أريده. ولم أستطيع أن أكف عن ذلك لأنني كنت شخصياً إنساناً ممزقاً. كنت أشعر بالخوف، وأكون ملعوناً لو كنت أعرف لماذا أخبرتك بعنواني. لقد كنت شديد البلاهة. وحتى حين كنت عائداً إلى البيت في تلك الليلة، كنت ألعن وأسب لأنني كنت قد أعطيتك عنواني. لقد كرهتك بسبب الأكاذيب التي كنت رويتها لك. كل ما كنت أريده هو أن أخطب أمامك وأن أحلم، أحلم فقط. هل تعرفين ماذا كنت أريد بالفعل؟ كنت أريد أن تذهبي إلى الجحيم! هذا ما كنت أريده! كنت أبحث عن راحة البال، مستعداً من أجلها ومن أجل أن أشعر بأنه لا يمكن أن يقلقني أحد، مستعداً لبيع العالم كله بأتفه ثمن من أجل ذلك. ولو خُيِّرت بين أمرين: بين أن يتهدم العالم ويصيبه الدمار أو أن أشرب قدح الشاي، لاخترت أن أدمر العالم وأخربه ما دمت سأحصل على قدح الشاي. هل كنت تعرفين ذلك أم لا؟ حسناً، إنني أعرف أنني شرير حقير أناني سفيه. وقد ظللت طيلة الأيام الثلاثة الماضية أرتعد محموماً

لأنني كنت أخشى أن تحضري. وهل تعرفين ما الذي كان يقلقني بوجه خاص في تلك الأيام الثلاثة؟ سأخبرك. إن ما كان يقلقني هو أني جعلت من نفسي بطلاً أمامك في حين أنك كنت ستجدينني في هذه الغرفة ممزق الملابس فقيراً حقيراً. لقد أخبرتك منذ لحظات بأنني لست خجلاً من فقري. حسناً، هذا كذب، إنني خجل من فقري بالفعل. إنني خجل من فقري أكثر من أي شيء آخر، وإنني أخشى فقري أكثر من أي شيء آخر، أكثر من أن أكون لصاً، لأنني تافه إلى حد أشعر معه أحياناً بأن جلدي قد سُلخ عني وأن أقل هَبّة من الهواء تؤذيني. ألا تدرين الآن أنني لن أغتفر لك أنك وجدتني في هذه الملفعة الممزقة، وفي هذه اللحظة التي كنت أتعلق فيها كالكلب الحقود برقبة أبوللون؟ منقذك، بطلك السابق، يلقي بنفسه كأي كلب تافه أجْرب قذر على خادمه، في حين أن خادمه يضحك منه! لن أغتفر لك الدموع التي كنت أذرفها أمامك منذ لحظات، كأية امرأة عجوز مهانة. بل لن أغتفر لك حتى هذه الاعترافات التي أدلي بها لك الآن! أجل، عليك أن تدفعي ثمن ذلك كله لأنك تسببت في هذا بحضورك في هذه اللحظة، ولأنني منحط ولأنني أبشع وأسخف وأحقر وأتفه وأشد الديدان حسداً على وجه الأرض، تلك الديدان التي ليست بأفضل مني كثيراً، والتي هي -عليّ اللعنة إذا كنت أعرف لماذا- لا تخجل ولا ترتبك، في حين يكون عليّ أن تهينني أية حشرة طيلة حياتي، لا لشيء إلا لأنني أستحق ذلك بالفعل! وماذا يهمني لو كنت لا تفهمين شيئاً مما أتحدث عنه الآن؟ وماذا يهمني من كل ما يحدث لك؟ إن كنت تنحطين وتنحدرين إلى الحضيض هنالك أم لا؟ وهل تدركين أنني سأكرهك إلى الأبد لمجرد أنك قد سمعت مني كل هذا؟ ماذا؟ إن ذلك لا يحدث إلا مرة واحدة في حياة الرجل، لا يحدث إلا مرة واحدة أن يتحدث عما في ذهنه هكذا، ولا يحدث ذلك إلا

حين يكون مهستراً. ماذا تريدين أكثر من هذا؟ ولماذا تظلين واقفة أمامي بعد كل هذا؟ ألتعذبيني؟ لماذا لا تذهبين من هنا؟

بيد أن شيئاً غريباً حدث في تلك اللحظة.

كنت معتاداً على تخيل كل الأشياء، وعلى التفكير في الأمور كما تحدث في الكتب، وعلى تصوير كل شيء في العالم لنفسي كما كنت أراه في أحلامي، بحيث أنني لم أفهم في البداية معنى ذلك الأمر الذي حدث في تلك اللحظة. لقد حدث أنه بينما كانت ليزا ذليلة منسحقة أمامي، فإنها كانت تفهم أكثر مما كنت أتصور. كانت تفهم من هذا كله ما تفهمه المرأة العاشقة بإخلاص دائماً وقبل أي شيء آخر: لقد فهمت أنني لم أكن سعيداً واختفت النظرة المرتعبة المشمئزة من عينيها وحلت محلها نظرة حزينة دهشة. وما أن بدأت بوصف نفسي بالحقير والشرير والتافه.. وما أن انبثقت دموعي (كنت قد قلت ذلك كله وأنا أبكي) حتى صار وجهها يرتعد وترتعش، وأرادت أن تقف لتمنعني من الاستمرار، ولما انتهيت لم تكن مكترثة لعباراتي التي كنت أطلب فيها منها أن تخرج، تخرج من الغرفة، وإنما كانت تشعر بأنني قد لقيت عناءً شديداً في قول ذلك كله. كانت فتاة مسكينة منسحقة، وكانت تعتبر نفسها أقل من مستواي بمراحل. ولماذا يتعين عليها أن تغضب؟ قد قفزت فجأة من الكرسي، بدافع لم يكن في وسعها أن تقاومه، واقتربت مني وهي ما تزال خجلة لا تجرؤ على الاقتراب، مدت يدها إليّ... وهنا خانني قلبي، فاندفعت نحوي وأحاطت عنقي بذراعيها وانفجرت باكية، ولم أستطع ضبط نفسي، فانفجرت منتحباً بطريقة لم أعهدها في حياتي قط... وحاولت أن أقول لها:

- إنهم.. إنهم لا يدعونني.. ولا أستطيع.. لا أستطيع أن أكون صالحاً!

ولم أتمم عبارتي، وإنما تهالكت على الأريكة، وارتطم وجهي بها وطفقت أبكي طيلة ربع ساعة. والتصقت بي ووضعت ساعدها حول عنقي ولاح عليها أنها كانت قد همدت في تلك الوضعية.

بيد أن المشكلة هي أن نوبتي الهستيرية لم تكن لتستمر إلى الأبد. ولهذا (وهذه هي الحقيقة البشعة، أكتبها كما هي)، بينما كنت متهالكاً على الأريكة، متمسكاً بها بقوة، ودافناً وجهي في حشوتها الرخيصة الممزقة، بدأت شيئاً فشيئاً وأنا كاره ودون أن أستطيع المقاومة أشعر بأنني سألوح لها حماراً بشعاً لو رفعت رأسي ونظرت في وجهها. وماذا كان يخجلني؟ لست أعرف. كل ما أعرفه هو أنني كنت خجلاً وقد خطر ببالي في تلك اللحظة أن الموقف قد تغير وأنها قد صارت البطلة، في حين أنني كنت الذليل المنسحق أمامها، تماماً كما كانت تلوح لي في تلك الليلة - قبل أربعة أيام... وقد أبرق ذلك كله في ذهني في الوقت الذي كنت فيه ما أزال متشبثاً بالأريكة!

يا الله، هل كنت أحسدها حين كنت أشعر بذلك.

لست أعرف، ولا أستطيع أن أقرر ذلك حتى اليوم، وكنت في ذلك الحين لا أعرف نفسي كما أعرف الآن بالطبع. إنني لا أستطيع أن أعيش دون أن أشعر بأن هنالك إنساناً واقعاً تحت تأثيري تماماً، ودون أن أشعر بأنني حر في أن أطغى على إنسان ما. ولكن - لا يستطيع المرء أن يوضح الأشياء بالتحليل والاستنتاج، ولهذا فلا فائدة في أن أعلل وأستنتج.

واستجمعت قواي في الحال ورفعت رأسي.

كان علي أن أفعل ذلك إن عاجلاً أو آجلاً.. و، حسناً، ما أزال حتى اليوم لا أستطيع أن أكف عن الاعتقاد بأنه قد انبعث من أعماقي شعور آخر

لا لشيء إلا لأنني كنت خجلاً من النظر إليها - شعور بالسيطرة والملكية! والتمعت عيناي انفعالاً، فأمسكت بيديها بعنف. كم كنت أكرهها، وكم كنت منجذباً إليها في تلك اللحظة! كان هذان الشعوران يضاعف أحدهما الآخر. وكان ذلك يلوح لي وكأنه انتقام!... ونظرت إليّ بحيرة أول الأمر، بل برعب، ولكن ذلك لم يدم إلا لحظات، لأنها احتضنتني بحرارة ونشوة...!

❋ ❋ ❋

10

وبعد ربع ساعة كنت أتمشى في الغرفة بصبر نافذ. وكنت أذهب في كل لحظة إلى الستارة وأنظر خلال شقوقها وأجد ليزا جالسة على الأرض متكئة برأسها على حافة الفراش، وأعتقد أنها كانت تنتحب. ولكنها لم تذهب، الأمر الذي ضايقني كثيراً. لقد عرفت كل شيء في تلك اللحظة، كنت قد أهنتها بصورة نهائية، ولكن - لا حاجة بي أن أقول شيئاً من ذلك. لقد خمنت أن عاطفتي المشتعلة لم تكن بدافع الانتقام، ولم تكن غير إهانة جديدة لها، وبالإضافة إلى كرهي السابق لها، الذي لم يكن هناك ما يدعو إليه، فقد أضفت إليها كرهاً جديداً يتمثل في غيرتي الشخصية منها... على كل حال، لست متأكداً من أنها قد فهمت كل شيء بوضوح، بيد أنني متأكد من أنها قد عرفت تماماً أنني إنسان حقير، وإنني، فوق ذلك، لم أكن قادراً على حبها. إنني أعرف أنكم ستقولون إن هذا كله بعيد عن التصديق - إنه أمر بعيد عن التصديق أن يكون الإنسان حقوداً أحمق كما كنت - وأجرؤ على القول بأنكم ستضيفون قائلين إنه لم يكن محتملاً أنني لا أستطيع أن أحبها، أو على الأقل، أن أفهم حبها. ولكن لماذا يكون ذلك غير محتمل؟ قبل كل شيء، لم يكن في استطاعتي أن أحب أي إنسان لأن الحب، وأكرر ذلك، كان يعني بالنسبة لي الطغيان والسيطرة. ولم أستطع أن أفهم في حياتي كلها نوعاً آخر من أنواع الحب، وقد بلغت مرحلة كنت فيها، وما أزال

حتى الآن، أؤمن بأن الحب يعني طغيان الرجل وحقه في السيطرة على المرأة التي يحبها والتي تحبه وتمنحه ذلك الحق بإرادته الحرة. ولم أكن أستطيع حتى في أحلامي أن أتصور الحب غير كفاح، وكنت أبدأه بالكراهية وأنهيه بالإذلال التام، ثم لا أعرف بعد ذلك ما أصنع بالمرأة التي أذللتها واستبحتها. أما الأمر الذي لم يكن محتملاً حين أكون قد بلغت تلك المرحلة من الانحطاط الخلقي، وحين أكون قد فقدت الاتصال (بالحياة الحقيقية) فهو أنني كنت قبل ساعات من ذلك قد فكرت في لومها لأنها جاءت تستمع إلى (عباراتي الشجية)، ولم أفكر أبداً بأنها لم تأت لتستمع إلى عباراتي الشجية تلك، وإنما جاءت لتحبني، لأن المرأة لا يمكن أن تبعث إلا بالحب، الحب الذي يعتبر خلاصه الحقيقي من أية مصيبة، والذي يعتبر مصدر صلاحها الخلقي. ولا يمكنها أن تجد ذلك في أي شيء آخر. ومع ذلك فلم أكن أكرهها حين كنت أذرع أرض الغرفة وأنظر إليها من شقوق الستارة. كنت أشعر فقط بضيق لا يُحتمل لأنها كانت موجودة هنالك. كنت أشعر فقط بضيق لا يُحتمل لأنها كانت موجودة هنالك. كنت أريد أن تختفي كنت أبحث عن «السلام»، وكنت أريد أن أظل وحدي في زاويتي الحقيرة. كانت «الحياة الحقيقية» - التي لم أكن معتاداً عليها - فقد سحقتني بحيث إنه لم يكن في وسعي أن أتنفس.

ومرت دقائق أخرى ولم تنهض ليزا، وكأنها كانت فاقدة الإحساس. وبلغت بي الحقارة أنني طفقت أطرق باب الستارة لأنبهها إلى ضرورة الانصراف... فانتبهت ونهضت بسرعة وراحت تبحث عن منديلها وقبعتها وفرائها، وكأن الأمر الوحيد الذي كان يشغلها هو أن تهرب مني بأسرع ما في استطاعتها...

وخرجت من وراء الستارة ببطء بعد دقيقتين، ونظرت إليّ، ولكنني عبست بنذالة، رغم أنني أعترف بأنني أرغمت نفسي على ذلك، لا لشيء إلا لأنني كنت أريد أن ألوح لها كذلك، وأبعدت عيني عن عينيها. وقالت وهي تتجه نحو الباب:

- وداعاً...

وقفزت نحوها فجأة، وأمسكت بيدها وفتحتها ووضعت فيها شيئاً و - أغلقتها ثانية. ثم استدرت في الحال واتجهت نحو الزاوية الأخرى من الغرفة لكي لا أراها على الأقل.

بيد أنني كذبت عليكم في هذه اللحظة بالذات. كنت أريد أن أقول: إنني لم أفعل ذلك عن قصد، وإنما فعلته لأنني لم أكن أدرك ماذا كنت أفعل، كنت قد نسيت نفسي تماماً أثناء حماقتي. ولكنني لا أريد أن أكذب، ولهذا فإنني أريد أن أقول بصراحة إنني فتحت يديها ووضعت شيئاً فيهما - بدافع الحقد. وكان ذلك قد خطر ببالي حين كنت أتمشى في الغرفة، وحين كانت جالسة وراء الستارة. بيد أنني أستطيع أن أقول هذا وأشعر بأنني صادق فيه: لقد فعلت ذلك، لا لأن قلبي... وإنما لأن ذهني الشرير هو الذي دفعني إلى ذلك. وكانت تلك القسوة غير صادقة، كانت مختلفة اختلافاً ومصطنعة اصطناعاً متعمداً، وكانت من ذلك النوع الذي تحفل به الكتب بحيث أنني لم أستطع أن أتحملها شخصياً لحظة واحدة، وإنما هرعت إلى تلك الزاوية لئلا أرى شيئاً، ثم غلب عليّ الخجل واليأس واندفعت في أثر ليزا، وفتحت الباب وطفقت أستمع. وهتفت، ولكن بصوت خافت:

- ليزا! ليزا!

ولم يكن هناك جواب ما. بيد أنني سمعت في تلك اللحظة صوت الباب الخارجي وهو يُفتح بصعوبة ثم يُغلق بعنف، وظل صداه يتردد عبر السلم.

لقد ذهبت إذن. وعدت إلى غرفتي متأملاً، وأنا أشعر بالاستياء والحيرة.

ووقفت قرب المنضدة والكرسي الذي كانت تجلس عليه ليزا وتلوح يائسة أمامي. ومرت دقيقة وفجأة انتبهت إلى شيء. لقد رأيت أمامي على المنضدة ورقة نقدية زرقاء من فئة خمسة روبلات. كانت الورقة ذاتها التي كنت قد وضعته في يدها قبل دقيقة. لقد كانت الورقة ذاته، ولم تكن غيرها، لأنها كانت الورقة الوحيدة في غرفتي. لقد توفر لها الوقت الكافي لترميها على المنضدة في اللحظة التي كنت فيها أهرع إلى تلك الزاوية في الناحية الثانية من الغرفة.

- حسناً، لقد كنت أتوقع ذلك منها بالطبع. أكنت أتوقع منها ذلك حقاً؟ كلا، لقد كنت أنانياً جداً، ولم أكن أحترم الناس، لكي يكون في وسعي أن أتصور أنها قد تفعل ذلك. لقد كان ذلك كبيراً جداً، بل إنني لم أكن أحتمل ذلك. ومرت دقيقة، وأخذت أرتدي ملابسي في جنون. ارتديت كل ما امتدت يدي إليه من ملابسي، وركضت منطلقاً في أثرها. ولم تكن قد سارت أكثر من مائة ياردة حين اندفعت إلى الشارع. كان الشارع خالياً مهجوراً، وكان الثلج يتساقط ثقيلاً بصورة عمودية ويتجمع فوق الرصيف وفوق الطريق الخالي. ولم يكن هنالك أحد على الإطلاق، وإنما كان يعم الشارع سكون عميق. وكانت المصابيح ترسل بصيصاً كئيباً لا فائدة فيه. وركضت نحو مائة ياردة حتى بلغت مفترق الطرق، ووقفت.

ترى أين ذهبت؟ ولماذا أركض خلفها؟

لماذا؟ لأركع على ركبتي أمامها، وأبكي نادماً، وأقبِّل قدميها وأستميحها العذر! لقد أردت أن أفعل ذلك، وكان صدري يتمزق أسى، ولا يمكنني أن أتذكر تلك اللحظة بلا اكتراث مطلقاً. - ولكن، لماذا؟ لم يكن في وسعي أن أكف عن التساؤل. ألن أكرهها في الغد، لا لشيء إلا لأنني كنت أقبِّل قدميها اليوم؟ وهل يمكنني أن أسعدها؟ ألم أعرف اليوم للمرة المائة قيمتي الحقيقية؟ ألن أعذبها؟

وتساءلت حين عدت إلى البيت: ألن يكون ذلك أفضل، ألن يكون ذلك أفضل بكثير؟ وأطلقت العنان لمخيلتي، وكتمت الألم في قلبي: ألن يكون أفضل بكثير أن تحمل معها هذه الإهانة إلى الأبد؟ وما هي الإهانة إن لم تكن نوعاً من التطهير؟ إنها أشد أنواع الإدراك إيلاماً وسحقاً! غداً سأكون قد انحدرت بروحها إلى الوحل، وسأكون قد سحقت قلبها بإقحام نفسي في شؤونها، ولن تختفي ذكرى إهانتي لها من ذاكرتها، ومهما تكن القذارة التي تنتظرها مفزعة فإن ذكرى تلك الليلة سترفع شيئاً من معنوياتها وستطهرها - بالكراهية، وحسناً، ربما بالغفران أيضاً. ومع ذلك، فهل سيخفف هذا من وقع الأمور عليها؟

وهنا أجد نفسي بالفعل في مواجهة هذا السؤال: أيهما أفضل: السعادة الرخيصة، أم العذاب السامي؟ حسناً، أيهما أفضل؟ وطفقت أحلم بينما كنت جالساً في البيت ذلك المساء، يكاد الألم الممض في قلبي أن يقتلني. لم أكن قد عرفت مثل هذا العذاب والندم من قبل. ولكن، ألم أكن أعرف تماماً حين كنت أجْري في أثرها أنني كنت سأعود في منتصف الطريق؟

ولم أقابل ليزا بعد ذلك، ولم أسمع عنها شيئاً، ويمكنني أن أضيف أنني ظللت فترة طويلة مغتبطاً بـ «العبارة» التي قلتها عن فائدة الإهانة والكراهية، بالرغم من أنني مرضت مرضاً شديداً بسبب اليأس.

وبعد كل تلك السنوات، فإنني ما أزال حتى الآن أشعر بالشقاء حين أتذكر ذلك. وهنالك أشياء كثيرة يشقيني أن أتركها. ولكن - لماذا لا أختم «مذكراتي» هنا؟ إنني لا أستطيع أن أكف عن التفكير في أنني قد أخطأت بكتابتها. وعلى أي حال فقد كنت أشعر بالخجل وأنا أكتب هذه «القصة».. ولهذا فإنها تلوح لي أبعد ما تكون عن الأدب، إذ أنها ليست غير عقاب إصلاحي.

إن كتابة القصص الطويلة، و، مثلاً، تدميري حياتي كلها بانعزالي الخلقي في زاويتي الحقيرة وبعاداتي اللااجتماعية، وبفقداني الاتصال بالحياة، وبإغراقي في حقدي وأنا في قبوي المظلم - أخشى أن يكون هذا كله أمراً لا طرافة فيه. يجب أن يكون في القصة بطل، أما أنا فيلوح لي أنني قد جمعت كل ما يمكن أن يؤدي إلى إظهار شخص بصورة مناقضة تماماً للصور التي يجب أن يكون عليها البطل، وبالإضافة إلى هذا فإن ذلك كله جدير بأن يحدث تأثيراً مؤلماً، لأننا جميعاً قد فقدنا صلتنا الحياة، إننا جميعاً مقعدون - لا نزيد ولا نقل. لقد فقدنا صلتنا بالحياة إلى درجة أننا لا نملك أحياناً إلا أن نشعر بالاشمئزاز من «الحياة الحقيقية» باعتبارها عبئاً ثقيلاً، ونحن جميعاً متفقون على أن «الحياة» كما نجدها في الكتب هي أفضل بكثير. ولماذا نُحدث كل هذه الضجة في بعض الأحيان؟ لماذا نخدع أنفسنا؟ ماذا نريد؟ إننا أنفسنا لا نعرف ذلك. والحق أننا سنكون أسوأ لو استجيبت دعواتنا السخيفة. حاول فقط أن تهبنا استقلالاً أكثر وأن تطلق يدي أي واحد منا وأن توسع نطاق فعالياتنا وأن تخفف من شدة النظام، فترانا - أجل، إنني أؤكد لك - ترانا نستجدي ذلك النظام في الحال ونتوسل أن يعود ويطبق علينا.

أعتقد أنكم ستغضبون لأنني أقول هذا، وستبدأون بالصراخ وتضربون بأقدامكم على الأرض وتقولون: تحدث عن نفسك وعن حياتك الشقية في

قبوك المظلم، ولا تجرؤ على أن تقول: «جميعنا»، ولكن، يا الله، أيها السادة، إنني لا أريد أن أبرر نفسي باستخدام كلمة «جميعنا». أما بالنسبة لي فقد ذهبت إلى أبعد حد في حياتي في أمور لم تجرؤوا أنتم على سير نصف الطريق إليها، وبالإضافة إلى ذلك فإنكم تخطئون في فهم جبنكم فتحسبونه إدراكا أو شيئاً مألوفاً بالنسبة للجميع، وقد لذّ لكم ذلك، لذّ لكم أن تخدعوا أنفسكم.

وهكذا، فالواقع أنني أبدو أكثر حياة منكم. انظروا إلى الأمر بإمعان! لماذا، بل إننا لا نعرف أين يمكننا أن نجد الحياة الحقيقية، أو ما هي، أو ماذا تدعى. أتركوننا بلا كتب وسترون حيرتنا، وكيف أننا سنضيع أنفسنا في متاهة، ولن نعرف شيئاً نتمسك به أو نحبه أو نكرهه أو نحترمه أو نحتقره. وسيصعب علينا أن نكون بشراً، بشراً بلحم ودم حقيقيين، بلحمنا ودمنا، إننا نخجل من ذلك ونعتبره أمراً مهيناً. ونحن نفعل كل ما في وسعنا لنكون بشراً أسوياء من الناحية النظرية. إننا نولد أمواتاً، وقد ظللنا منذ عهد بعيد نولد بآباء غير حقيقيين. ويبدو أننا نميل إلى ذلك يوماً بعد يوم ونتذوقه. وسيأتي يوم نولد فيه بفكرة. ولكن كفى - إنني لا أريد أن أكتب أكثر من هذا من «قبوي المظلم»...

* * *

ليست هذه ، بالمناسبة ،

نهاية مذكرات هذا الرجل

المتناقض، فإنه لم يستطع مقاومة

إغراء الكتابة، ومضى يكتب

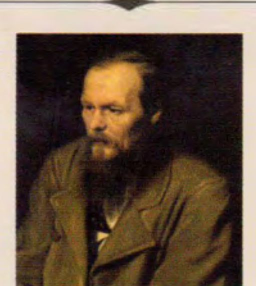
ويكتب . ولكن يلوح لنا أيضاً

أننا يجب أن نتوقف هنا ..

دوستويفسكي

NOTES FROM UNDERGROUND

روايات



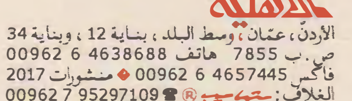
رسائل من تحت الأرض

اتّسم إنتاج دوستويفسكي الروائيّ بالمنهج الفنّيّ الجديد في روسيا، حيث اتّجه إلى البحث العميق في نفسيّات أبطاله، فقدّم صورة واضحة جليّة لواقع الحياة حينذاك خاصّة في (الجريمة والعقاب) و(الأخوة كرامازوف) إلى جانب رواياته الأخرى الّتي وصف فيها حياة الفقراء. وقد ركّز اهتمامه، في هذه الروايات، على تصوّر عالم الفقراء الروحيّ والأخلاقيّ المرتبط بوجودهم الماديّ، كما ركّز على عالم شخصيّاته الداخليّ، والمبادئ الإنسانيّة، والأخوّة، والضمير الحيّ، والنفس القادرة على التضحية والمعاناة، وحمل على عاتقه، في رواياته، معالجة الأحداث الجارية آنذاك، ورسم تأمّلاته التحليليّة تجاه الواقع للخروج من أزمة الحياة الّتي كانت سائدة آنذاك، فهاجم الشرّ الاجتماعيّ، ووقف إلى جانب الإنسان البسيط المضطهد الّذي بنى حلمه عليه وآمن به إيمانًا كبيرًا.

◆ ◆ ◆




ISBN 978-6589-09-550-7
9 786589 095507


الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2017
الغلاف: محمد حبيب ® 95297109 7 00962